الأدب الإسلامي

آفاق ونماذج

دكتور
حامد طاهر
عميد كلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــــاب : الأدب الإسلامي
المؤلـــــــف : د . حامد طاهر
تـاريخ النشـــر : ٢٠٠٠

النـاشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون
الدور الأول – شقة ٦
ت ، : ٢٤٧٤٠٣٨، ٢٤٦٢٥٦٢
فاكس : ٢٤٠١٧٤٤
التـــوزيــع : ١٠ شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المركز الرئيسي : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1) ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧
رقـم الإيـداع : ٥٥٣١/ ٩٩
التـرقيم الدولي : ISBN
977 - 303 - 162 - 4

الأدب الإسلامي

آفاق ونماذج

الإهداء

إلى الأجيال الصاعدة،

من أبناء أمتنا ..

الذين يتطلعون إلى أدب أصيل،

لاشرقى ولا غربى،

يعبر عنهم،

وتتواصل معه أرواحهم ..

حامد طاهر

تقديم

منذ عدة سنوات، طلبت منى إذاعة قطر أن أكتب لها مجموعة متكاملة من الأحاديث حول الأدب الإسلامي [1]. وقد جاء ترحيبى بالطلب سريعاً، لأننى كنت، ومازلت أتابع الدعوة الهادئة لتشجيع الأدب الإسلامي، والتى تظهر من وقت لآخر على صفحات الجرائد، أو يصدر بشأنها كتاب، ثم لا تلبث أن تختفى وسط الضجيج المتعالى للأدب الحديث، والترويج الواسع للأدب الغربى وما تناسل عنه من إنتاجات الحداثة، التى لم تلق على الإطلاق أى قبول من المجتمعات الإسلامية.

وقد وجدت الأمر غريباً. وهو أن الجميع متفق على أن (الأدب مرآة المجتمع)، وبالتالى فلابد أن يعكس مافى هذا المجتمع من حركة وسكون، من تقدم وتخلف، من انكسار وتطلعات .. وهذا المبدأ يطبق بكل احترام على كل المجتمعات الغربية، ولكننا عندما نحاول تطبيقه على المجتمعات الإسلامية نجد أصحاب الأصوات العالية يرفضون ويستنكرون ويتهمون أصحاب تلك المحاولة بالرجعية والجمود. وهنا نستحضر قول أحمد شوقى:

أحرام على بلابله الدوح   حلال للطير من كل جنس

إن الحرية التى يتمتع بها الأدباء فى الغرب ينبغى أن يتمتع بمثلها الأدباء فى العالم الإسلامى. وهذا يعنى أن تتاح لهم الفرصة ليكتبوا لمجتمعاتهم الأدب الذى تريده هذه المجتمعات، وليس ما يفرض عليها من الخارج. ولا شك أن للفرد المسلم، وللأسرة المسلمة، وللعلاقات الاجتماعية بين المسلمين جواً نفسياً واجتماعياً وثقافياً مختلفاً تماماً، أو إلى حد كبير، عن مثيله فى الغرب. لذلك فمن الظلم البين أن يقدم الأدب الغربى لهذه المجتمعات على أنه هو الزاد الذى يشبع ظمأها الروحى للأدب.

وانطلاقاً من هذه التوجهات، يسعدنى أن أقدم للقراء هذا الكتاب، متضمناً مجموعة الأحاديث الإذاعية بعد تنقيحها، مضافاً إليها مجموعة أخرى من النماذج

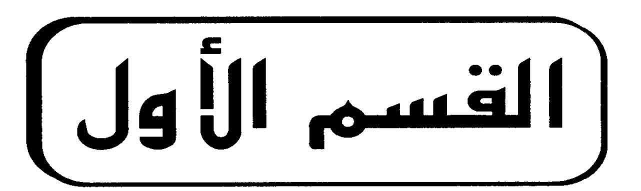
---

(١) كان للإعلامى المصرى القدير الأستاذ صلاح خليفة فضل تكليفى بهذه المهمة.

الشعرية والنثرية، التى أراها صالحة لتمثيل الأدب الإسلامى، حتى لا يطغى الحديث النظرى حول هذا الأدب على نصوصه الحقيقية

ومثل كل ما أكتبه، فإننى أرجو أن يكون دعوة إلى المتخصصين فيه لكى يتابعوا المسيرة، ويتجاوزوا الخطوة الواحدة بخطوات كثيرة .. والله ولى التوفيق،،

د. حامد طاهر


القسم الأول

معايير الأدب الإسلامى

فى القرنين الماضيين، بدأ العالم الإسلامى مسيرته على طريق النهضة، محاولاً التخلص من قيود فترة طويلة من الركود، وساعياً بكل جهده إلى تعويض مافاته، لكى يلحق بركب التقدم.

ولاشك أن الخمسين سنة الأخيرة تشهد صحوة إسلامية حقيقية، بدأت أصداؤها تتردد فى سائر أنحاء العالم الإسلامى، بل وتنتقل إلى المسلمين الذين يعيشون فى أوربا وأمريكا.

وبعد انحسار موجة الاستعمار الغربى فى منتصف القرن العشرين، ومع زيادة نسبة التعليم العصرى بين المسلمين، والرغبة القوية فى الإصلاح، بدأت تظهر اتجاهات عديدة، لبعث المفاهيم الإسلامية فى الحياة المعاصرة. ومن الأمثلة على ذلك ظهور مصطلح (الاقتصاد الإسلامى) الذى يعبر عن تكون ظاهرة علمية جديدة، تسعى لإثبات شخصية مستقلة ومتميزة للفكر الإسلامى فى مجال الاقتصاد، وخاصة بعد أن فشلت تماماً بعض الأنظمة الاقتصادية العالمية (الشيوعية)، وظهرت عيوب واضحة فى الأنظمة المقابلة لها (الرأسمالية).

حينئذ بدأ علماء المسلمين يقولون: إن لدينا فكراً إسلامياً اقتصادياً، يتميز بالدقة والبساطة، كما أنه يصلح للتطبيق فى حياة الناس الجارية.

وعلى غرار الاقتصاد الإسلامى، بدأت الدعوة إلى (أدب إسلامى) يعبر عن القيم والمبادئ السامية التى أرساها الإسلام.

لكن هذه الدعوة مازالت محدودة، فهى تتردد على استحياء أحياناً، وتتأكد فى أحيان أخرى، عن طريق تكوين بعض الجمعيات، أو عقد الندوات، وصدور بعض المجلات.

والمدار هنا، ليس مجرد الدعوة إلى إيجاد "أدب إسلامى"، وإنما فى تتبع ظاهرة الأدب الإسلامى، قديماً وحديثاً، بحيث يتم تحديد هويته، ويمكن بالتالى السير على هداه..

وفى سبيل تحديد هوية هذا الأدب الإسلامى، لدينا ثلاثة معايير، سوف نقوم بفحصها، حتى نتوصل إلى أكثرها مناسبة..

المعيار الأول: يتمثل فى عامل المكان .. فهل يمكن أن نقول إن الأدب الإسلامى، هو الأدب الذى يتم إنتاجه فى البلاد الإسلامية؟ بعبارة أخرى .. هل هو الأدب الذى يتم إنتاجه فوق الأرض التى تسكنها غالبية مسلمة؟

لاشك أن عامل المكان ضرورى، ولكنه لا يكفى وحده معياراً، لتحديد هوية الأدب الإسلامى .. فقد يعيش على أرض المسلمين من ينتج أدباً لا يتمشى تماماً مع عاداتهم وتقاليدهم، ولايستلهم مبادئ دينهم، الذى هو أخص خصائصهم. كما أننا قد نلتقى فى بعض البلاد التى لا نطلق عليها بلاداً إسلامية، بمن ينتج أدباً له صبغة إسلامية، أو يتمشى مع مبادئ الإسلام، ولا يعارضها .. وحينئذ يمكن الحكم عليه بأنه أدب إسلامى، على الرغم من مكان إنتاجه.

وهنا ننتقل إلى **المعيار الثانى،** الذى يتمثل فى عامل الزمان ..

ويمكن أن نتساءل: هل يمكن اعتبار كل ما تم إنتاجه، بعد مجيء الإسلام، أدباً إسلامياً؟

الواقع أننا نجد أنفسنا ــ هنا أيضاً ــ أمام إشكالية، وهى أن كثيراً من الأدباء، الذين كتبوا بعد ظهور الإسلام، وحتى الآن، لا ينطبق على أدبهم السمة الإسلامية بالمعنى الدقيق للكلمة .. فهناك من كتب فى موضوعات حرمها الإسلام، مفتخراً بارتكابها، ولدينا فى الأدب العربى، خلال العصر العباسى، ومابعده أنواع من الأدب، هى أبعد ما تكون عن روح الإسلام. وبالتالى فإننا لايمكن أن نقبل عامل الزمان على أنه هو وحده الذى يحدد هوية الأدب الإسلامى ..

ونصل الآن إلى **المعيار الثالث:** الذى يمكن أن نحدده فى: "التوجه الإسلامى" بمعنى الالتزام بمبادئ الإسلام وقيمه العليا، أثناء عملية الإنتاج الأدبى ..

وفى رأيى أن هذا المعيار هو أصدق المعايير فى تحديد هوية الأدب الإسلامى. وبالتالى يمكن القول بأن الأدب الإسلامى: هو الأدب الذى يصدر من منطلقات إسلامية، ويهدف إلى تمجيد القيم والمبادئ العليا، التى دعا إليها الإسلام.

وهو الذى يسعى ـ فى نفس الوقت ـ للتعبير عن الروح الإسلامية، لدى الشعوب التى تعتنق هذا الدين.

ذلك هو المعيار الذى يمكن ـ على أساسه ـ أن نقبل أو نرفض ماتم إنتاجه من أدب، سواء من حيث المكان، فى شتى أنحاء العالم الإسلامى، أو من حيث الزمان، بعد ظهور الإسلام، وحتى الآن.

وفى تصورى، أن معيار "التوجه الإسلامى" معيار عادل .. فهو ينفى عن أى أدب يصدر عن المسلمين صفة "الإسلامية" إذا ما قدس الرذيلة، أو شوه قيم الخير. أو إذا ما انفلت من إطار العقيدة الصحيحة، والثوابت الإسلامية المرتبطة بها، أو إذا ما جاهر بالانحلال، ومزق الروابط الأسرية، وصلة الرحم، التى يعقدها الإسلام.

وفى نفس الوقت فإنه سوف يتمتع بصفة "الإسلامية" مادام ملتزماً بالعقيدة، محترماً للشعائر، محافظاً على الكيان الأخلاقى الذى وضعه الإسلام، معتزاً بأحكامه العادلة، ومبادئه السامية.

كذلك ينبغى أن نتنبه لأمر مهم، وهو أنه لايكفى مطلقاً أن يتم إنتاج أدب ذى توجه إسلامى، حتى نقول إنه قد أصبح لدينا أدب إسلامى، وإنما لابد أن ينضم إليه التجويد الفنى فى التعبير، والتصوير، والارتقاء بالمستوى البلاغى إلى أبعد مدى ممكن.

بل إننى أكاد أذهب إلى أن الأديب الضعيف أو حتى المتوسط، لا ينبغى أن يتصدى لإنتاج الأدب الإسلامى، حتى لا تلتصق تهمة الضعف بالأدب الإسلامى، وتسىء بالتالى إلى مضمونه الحقيقى.

إن أعمالاً جيدة، ورائعة قد تم إنتاجها بالفعل فى إطار الأدب الإسلامى، وهذه الأعمال تتميز بالمضمون الإسلامى الصحيح، وبالجودة الفنية المطلوبة.

وهذان الشرطان ضروريان لاستمرار الأدب الإسلامى، كما أن مستقبله رهن بتحقيقهما.

۞۞۞

إحياء الأدب الإسلامى

ظهرت الدعوة إلى إحياء الأدب الإسلامى فى إطار الصحوة الإسلامية التى تشهدها معظم البلاد الإسلامية، وتتمثل هذه الصحوة فى المناداة بإحلال الإسلام بشرائعه، ونظمه، وقوانينه محل النظم والقوانين الوضعية، التى يثبت، فى كل يوم، عدم جدواها، لتحقيق سعادة الإنسان على الأرض، أو صلته بخالق الكون...

ولأن الأدب مرآة المجتمع، والأدباء هم أصوات ضميره، والمعبرون عما يختلج فيه من شجون، ويتواثب فيه من آمال، فقد أصبح من الضرورى أن يصدر عن المجتمعات الإسلامية أدب حقيقى يعبر عن آلامها وآمالها.

ومن الملاحظ أن المجتمعات الإسلامية، قد تعرضت على مدى القرنين الماضيين لموجة من الأدب الغربى، الذى جرى استيراد معظمه دون أن تكون هناك حاجة ماسة إليه، ودون أن يكون هذا الأدب مستجيباً لضرورة، وإنما تم استيراده، وتسويقه أحياناً، فى إطار السيطرة الثقافية التى حاول الغرب أن يفرضها على شعوب الأمة الإسلامية، وقد تفوق عليها من الناحية المادية. وأحياناً أخرى بفعل أبناء هذه الشعوب، الذين انخدعوا ببريق الإنتاج الأدبى فى الغرب، دون أن يشعروا أن هذا الإنتاج لا يصور مجتمعهم، ولايشبع تطلعاته.

وفى غمرة النقل الأدبى عن الغرب، كانت تتم فى كثير من الأحيان عمليات التشويه، والتعمية، والتدليس. واستغل المغرضون هذا التيار الجارف، فحملوا لنا من الغرب أسوأ أنواع البضاعة الأدبية.

وفى مقابل هذه العملية الكبرى، لم يجد أدباؤنا، أو الكثيرون منهم، مفراً من محاكاة الأدبى الغربى، سواء فى موضوعاته، أو فى صوره، وأساليبه. ونشأ بالتدريج أدب عربى مشوه .. لاهو بالأدب الغربى الجيد، ولا هو بالتعبير الحقيقى عن المجتمع العربى المسلم.

ثم جاءت الصحوة، وبدأ المسلمون يدركون أنهم على غير الطريق الصحيح، وأن ما ينتجه أدباؤهم فى غالبيته لا يعبر عنهم، ولا يكاد يمثلهم فى شىء.

ولهذا بدأت الدعوة إلى ضرورة إيجاد أدب إسلامى يعبر بصدق عن أحوال الشعوب التى تعتنق الإسلام، ويصور مشكلاتهم الحقيقية التى يعانون منها، كما يرسم لهم طريق المستقبل الذى يتطلعون إليه.

ومع ذلك، فإن الأدب الإسلامى، لا يرفض كل أنواع الأدب الأخرى. فهو يحترم الأدب الراقى فى كل لغات العالم، ويرحب بنماذجه المتميزة، وقد يتأثر بها، ويحاكى أسلوبها ... ولكنه يظل متمسكاً بمضمونه الأساسى، داعياً إلى المثل العليا، والقيم السامية التى نادى بها الإسلام، والتى تحترم كرامة الإنسان، وتنمى فى أعماقه قيم الحق، والخير، والجمال.

إن إحياء الأدب الإسلامى يتطلب من أدباء المسلمين أن يرجعوا إلى النماذج الجيدة، التى تم إنتاجها منذ ظهور الإسلام، وحتى اليوم. وهذه النماذج موجودة فى صورة نثر رائع، وشعر متميز. وحين يستوعبون هذه النماذج، ستصبح بالنسبة لهم نقاط انطلاق، إلى إنتاج نماذج أخرى معاصرة.

وهنا نقطة جديرة بالاعتبار: إذ ليس الأدب الإسلامى فقط، هو الأدب المكتوب باللغة العربية، وإنما يشمل إلى جانب ذلك الأدب الإسلامى المكتوب بالفارسية، والتركية، والأوردية، وسائر لغات المسلمين فى شتى بقاع العالم.

وفى نفس الوقت، لابد من رفض الأدب الذى سبق إنتاجه فى العالم الإسلامى، دون أن يكون صادراً عن قيم الإسلام الأساسية. فليس من الأدب الإسلامى: التغنى بالخمر، أو الغزل الحسى بالمرأة والغلمان. وليس من الأدب الإسلامى: التفاخر بالحسب والنسب، ولا المدح المبالغ فيه.

وهكذا نرى أن إحياء الأدب الإسلامى يتطلب عدة أمور:

أولاً: البحث عن النماذج الأدبية التى تتمشى مع مبادئ الإسلام.

ثانياً: رفض النماذج الرديئة، التى لا تمثل روح الإسلام، بل على العكس تكاد تتعارض معه.

ثالثاً: متابعة النماذج الأدبية العالمية والاستفادة من أساليبها الفنية، ومناهجها المتنوعة.

وأخيراً: الالتزام بالتعبير الصادق عن قضايا الأمة الإسلامية، مع استشراف حلولها من مصادر دينها الحنيف.

تلك هى مسئولية الأدباء، فى بعث الأدب الإسلامى من جديد. وتبقى بعد ذلك مسئولية الأجهزة المعنية فى الدول الإسلامية، لتشجيع هذا الأدب على الظهور والانتشار.

ونحن نعلم جيداً أن وسائل الإعلام الحديثة، أصبحت قوة رهيبة لا يمكن تجاهلها .. فعن طريقها يمكن إيصال صوت الأدب الإسلامى إلى سائر فئات المجتمع، بل وإلى سائر المجتمعات الأخرى.

كذلك فإن ترجمة الأدب الإسلامى إلى اللغات الأخرى أمر ضرورى، فلا معرفة بأدب أمة من الأمم إلا عن طريق الترجمة..

ونحن فى هذا المجال نحتاج إلى وسائل وإمكانيات. لكننا مع الرغبة الصادقة يمكن أن نحصل عليها، ونجيد استخدامها. وعندئذ سوف يكون للأدب الإسلامى صوته المسموع، ومكانته التى يستحقها.

يضاف إلى ذلك كله: تشجيع إنتاج الأدب الإسلامى، برصد الجوائز، والمكافآت المجزية، حتى تجذب له أكبر قدر من الأدباء. وحبذا لو وضعت جائزة باسم "**جائزة الأدب الإسلامى**"، يحصل عليها فى كل عام من ينتج عملاً، أومجموعة أعمال أدبية متميزة فى إطار الأدب الإسلامى.

لقد قيل بحق: إن الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة. وفى تصورى أن الرغبة لدى كل المسلمين متوافرة، وأن حسن النوايا موجود، ولم يعد إلا البدء بتلك الخطوة المباركة، على طريق الأدب الإسلامى؛ من أجل نهضته، وفى سبيل الارتقاء به.

۞۞۞

مصادر الأدب الإسلامى

الواقع أن مصادر الأدب الإسلامى تمثل أساساً هاماً فى محاولة تحديد هويته، وإحياء منابعه الجديدة، والنهضة به فى عالم اليوم، ليصبح صوتاً معبراً عن الشعوب الإسلامية، ومرآة حقيقية لحاضر المسلمين.

إن القرآن الكريم هو مصدر المصادر لحياة المسلمين، فى جوانبها العقائدية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. ونحن نضيف هنا: إنه مصدر أساسى لأدباء المسلمين، يغترفون منه بدون حدود، ويرجعون إليه على الدوام، فى سوره وآياته، فى عباراته وألفاظه، فى أحكامه وآدابه، فى قصصه وأمثاله، فى بسطه واختصاره، فى جمعه بين مخاطبة العقل وتحريك الشعور، فى ذلك التنوع الفنى الذى يقدم المعلومة ممتزجة بالموعظة، ويعرض التاريخ مقروناً بالاعتبار.

إن بلاغة القرآن كانت، وما تزال موضع اهتمام الباحثين. وكل منهم يقبس منها جانباً واحداً فقط، دون أن يستطيع الإلمام بكل جوانبها .. فهى بين أيديهم كالماسة المتعددة الأوجه، ينبعث من كل وجه منها شعاع متألق..

ثم يلى ذلك بلاغة الأحاديث النبوية، وما تشتمل عليه من حكم، وأحكام، ووصايا.. مصوغة فى أروع نظام، ومركزة إلى أبعد حد. يقول الرسول ﷺ: "أوتيت جوامع الكلم" وهذا معناه: القدرة على اختصار المعانى الكثيرة فى العبارات القليلة الألفاظ.

والسنة النبوية لاتحتوى فقط على أقوال الرسول ﷺ ، وعباراته، بل إنها تتضمن مواقف كاملة: كان يتحدث فيها مع الصحابة (رضوان الله عليهم)، ويسألهم، ويسألونه.. وكان السؤال منه ﷺ فى معظم الأحيان للتقرير، وللانطلاق من إجابته إلى موضوع آخر.

كما تمتلئ السنة النبوية بضرب الأمثال ذات الدلالات المعبرة، وتحتوى على قدر هائل من الصدق فى الخطاب، والنصح الخالص للأمة.

ومازلنا نقول عن أى أدب عالمى جيد إنه لابد أن يكون صادقاً، أى معبراً بأمانة عن انفعالات صاحبه، ومتجهاً بكل إخلاص إلى قرائه.

ثم بعد القرآن الكريم، والسنة النبوية، تأتى من مصادر الأدب الإسلامى: أقوال الصحابة والتابعين وعلماء السلف، التى هى فى الواقع خلاصة حية لتجاربهم المستوحاة من دينهم الحنيف، وتتنوع هذه الأقوال فى صورة خطب، ومكاتبات، وتوقيعات، ووصايا، وتوجيهات..

روى أن أحد عمال البصرة كتب إلى عمر بن عبد العزيز يطلب منه مبلغاً مبالغاً فيه لينفقه على بناء دار الولاية، فكتب عمر بن العزيز: "أدارك فى البصرة، أم البصرة فى دارك؟!" وهذا من أبلغ نماذج توقيعات الخلفاء التى كانوا يعلقون بها على ما يرد إليهم من مكاتبات ..

نصل بعد ذلك إلى ما أنتجه الشعراء والكتاب من شعر ونثر، يتميز بطابع إسلامى أصيل .. بدءاً من شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت، وما قاله كعب بن زهير فى الاعتذار للرسول ﷺ ومدحه هو والصحابة، ثم الشعر العذرى العفيف الذى تغنى به الشعراء خلال العهد الأموى، والشعر الذى يمجد صفات البطولة فى الحرب، وأخلاق الفروسية فى زمان السلم، خلال عهد الدولة العباسية، إلى جانب الشعر الصوفى الذى تغنى به أولئك الشعراء المهيمون فى الحب الإلهى.

ولا يمكننا أن نوافق على مقولة أطلقها أحد نقاد العرب بشأن العلاقة بين الشعر والدين، فقد قال هذا الناقد: "إن الشعر بمعزل عن الدين، وأن الدين إذا دخل الشعر أضعفه" .. إن هذه المقولة غير صادقة .. فهناك الكثير من القصائد الدينية التى بلغت مستوى عالياً من الجودة الفنية. ولا يرجع السبب فى ضعف مستوى الشعر إلى أنه يتناول أغراضاً دينية، وإنما السبب الحقيقى يكمن فى ضعف مستوى الشاعر نفسه، الذى يتعرض لهذه الأغراض، دون أن تكون لديه الملكة، والمقدرة الفنية ذات المستوى العالى لكتابة شعر متميز فيها.

لكننا هنا بحاجة إلى وضع معايير يتم على أساسها تنقية الشعر العربى، وكذلك النثر العربى، من النماذج التى لاتتمشى تماماً مع مبادئ الإسلام، والتى جرى اعتبارها أدباً إسلامياً، مع أنها أبعد ما تكون عن هذا المصطلح الراقى.

إن أشعار أبى نواس فى الخمر، وغزليات بشار بن برد الماجنة، ومفاخرات ومنافرات الفرزدق، وجرير، وتجديفات أبى العلاء المعرى، والمدح المبالغ فيه

لدى المتنبى .. كل هذا لايعد من قبيل الأدب ذى التوجه الإسلامى، وإنما يمكن أن يظل فى نطاق الأدب العربى.

لكن ما أنتجه هؤلاء الشعراء من قصائد لاتمس العقيدة الإسلامية، أوالمبادئ الإسلامية، هو ما ينبغى أن نقبله، ونعيد قراءته، واستلهامه .. بينما ننفى ونرفض ماكتبوه متعارضاً مع الإسلام ومبادئه..

وإلى جانب ما سبق، ينبغى عدم تجاهل ما أضافته الشعوب الإسلامية خلال تاريخها الطويل، من آداب الأمم الأخرى، التى وجدتها متمشية مع قيم الإسلام، وغير متعارضة معها.

ويكفى أن أشير، فى هذا الصدد، إلى كتاب "كليلة ودمنة" الذى تم تأليفه فى الهند، ثم نقل إلى اللغة الفارسية القديمة، ومنها إلى العربية، خلال القرن الثانى الهجرى، وأصبح من أهم معالم الأدب العربى الذى يتمشى تماماً مع الإسلام.

لقد كان لدى أجدادنا حس أدبى مرهف، استطاعوا به أن يقبلوا بعض عناصر الآداب لدى الأمم المجاورة لهم .. وقد طعموا بها الأدب العربى، دون أن يطغى ذلك التطعيم على كيانه الخاص، أو شخصيته المتميزة، بل على العكس كان هذا التطعيم الأدبى مبعث قوة، وعاملاً من عوامل الأصالة، والجودة ..

وما أحرانا اليوم، ونحن نتتبع مصادر الأدب الإسلامى، ألا نغفل عن عملية التطعيم اللازمة للأدب الإسلامى، بخلاصة التجارب الأدبية للأمم الأخرى. ومن المؤكد أن هذه العملية سوف تفيد الأدب الإسلامى فى الحاضر، والمستقبل، كما أفادت الأدب العربى على أيدى أجدادنا فى الماضى.



مستقبل الأدب الإسلامى

يتشكك البعض فى إمكانية قيام، أو استمرار أدب إسلامى متكامل .. ويعتمدون فى ذلك على حجتين:

الأولى: قلة النماذج السابقة له.

الثانية: ضعف المستوى الفنى لنماذجه الحالية.

والواقع أن الحكم بقلة النماذج السابقة حكم متسرع. وسيتبين لنا بعد قليل أنه يصدر عن نظرة ضيقة لمفهوم الأدب الإسلامى. وإذا كنا سنقصر حديثنا هنا عن الأدب العربى، أو بمعنى أدق الأدب الإسلامى المكتوب باللغة العربية، فنحن نعلم أنه قد وصلنا فى صورة شكلين أساسيين هما:

الشعر ، والنثر

وعلينا أن نلاحظ أن الشعر كله بقصائده الطوال والمتوسطة، وبمقطوعاته الصغيرة، وأبياته المفردة، لم يتم تسجيله فى البداية عن طريق الكتابة، لأنه كان يعتمد على الحفظ الشفهى، وبالتالى فقد ضاع منه جزء كبير. أما ما وصلنا حتى الآن فهو جزء من أجزاء كثيرة، مازالت مخطوطاتها مبعثرة فى مختلف مكتبات العالم.

وهكذا يظهر أن الحكم بقلة النماذج، لايعتمد على قاعدة صلبة من الاستقراء الشامل والإحصاء الدقيق.

أما الشكل الثانى، وهو النثر، فهو يتوزع بين الخطب والمراسلات، ووصف المواقف التى كانت تحدث بين الأدباء، والتعرض لما كان يدور فى بلاط الحكام، ودواوين الإنشاء.

وهذا الشكل قد تعرض – أكثر من الشعر – لقدر أكبر من عدم التسجيل الكتابى.

وهكذا فإن ما وصلنا حتى الآن من الشعر والنثر لا يمثل (كل) أو (جميع) ما كتبه الشعراء والأدباء.

أما دعوى ضعف المستوى الفنى فيما يتم إنتاجه من أدب إسلامى فى العصر الحاضر، فلا يمكن التسليم بها على طول الخط .. لأن الأدب الإسلامى

ينبغى أن ينشأ من أجله نقد أدبى إسلامى، يراعى أول ما يراعى اتجاه هذا الأدب فى أهدافه، ومضمونه، وجهة إسلامية صحيحة. ثم بعد ذلك يمكن تطبيق الأسس والمعايير النقدية الفنية عليه..

وهذا يعنى أن الأدب الإسلامى يحتاج إلى مستويين من النقد:

نقد المضمون، ونقد الشكل. وهذا مالم يتم حتى الآن بصورة متكاملة.

ومع ذلك، فإننا بالبحث الدقيق والاستقراء، يمكننا أن نعثر على مجموعة من النماذج الشعرية والنثرية من الأدب الإسلامى الجيد، والذى يرقى فى مستواه الفنى إلى مصاف الأعمال الأدبية الكبرى.

وسيبقى دائماً أن الأديب الجيد هو الذى يمكنه أن ينتج أدباً جيداً، وأن الأديب المتوسط أو الردىء هو الذى يهبط بمستوى الأدب، مهما كان مضمونه أو محتواه. إن العبرة هنا تكمن فى طريقة التناول، وهى بالضرورة تختلف من أديب إلى آخر.. وما ذنب الأدب الإسلامى حين يتعرض للكتابة فيه أدباء متوسطون، أو أقل من المستوى المتوسط، إنه سوف يتحول على أيديهم إلى مجرد مواعظ مباشرة، أو قص ممل.

وإن استعراض المدائح النبوية التى كتبت فى ذكرى مولد الرسول ﷺ يمكن أن يطلعنا ببساطة على هذه النتيجة. فسوف نرى الكثير من القصائد التى تحتفل بذكرى المولد، وتهفو إلى أيام الرسالة الأولى، وتتغنى بفضائل الرسول ﷺ. وأخيراً فإنها تنتهى عادة بالتحسر على أحوال المسلمين، وتنعى عليهم ابتعادهم عن اتباع الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ.

ذلك هو الموضوع الذى يتكرر فى كل قصائد هذا النوع الأدبى.. ومن الممكن اعتباره أدباً إسلامياً من حيث مضمونه وشكله معاً. لكن المشكلة تتمثل فى الأسلوب الفنى الذى يتناول به كل شاعر ذلك الموضوع المتجدد فى كل عام ..

وهنا ينبغى على النقد الأدبى الإسلامى القيام بمهمة صعبة، تتمثل فى جمع هذا التراث الشعرى عبر العصور، ثم التصدى للموازنة بينه حتى يظهر الجيد من الردىء، ويتميز الأصيل من الزائف .. وأنا على ثقة من أن هناك نماذج أدبية رفيعة المستوى، لكنها بحاجة إلى اكتشاف، وتحليل ، وتقييم.

من العرض السابق يتبين أن الأدب الإسلامى برىء مما يحـاول البعض أن يلصقه به من أجل القضاء عليه، أو سد الطريق أمامه .. بل على العكس، إن أمـام هذا الأدب، فى القرن القادم، مستقبلاً واعـداً .. وهـو ــ وإن كـان اليـوم فـى سـبيل النهضة يخطو على استحياء ــ فإن الغد يحمل له الكثير من الإمكانيات الواعدة.

لكن الطريـق أمـام الأدب الإسـلامى ينبغـى أن يكـون واضحـاً، والسير فيـه يحتاج إلى زاد كاف .. فلا ينبغى أن يتصدى للأدب الإسلامى إلا كل من يجـد فـى نفسه الموهبة القوية، والتوجه الإسلامى الصحيح .. من يكون علـى درايـة بتـاريخ المسلمين، وعلى وعى عميق بحاضرهم .. من يعرف جيداً قوانين الحركة الكامنـة فى العالم الإسلامى، وكيفية استخدامها .. من يكون على اطلاع واسع على مختلف الآداب العالمية، عارفاً بأسباب تميزها وتأثيرهـا .. مـن يكـون علـى درايـة واسـعة بنفسية الشعوب الإسلامية: ما تتألم منه، وما تحلم به.

ذلك هو الأديب الموعود الذى ينتظره الأدب الإسلامى، لكـى يفجر طاقاتـه، ويصل به إلى المستوى العالمى المنشود.

وإذا كانت مسيرة الألف ميل تحتاج دائماً إلى الخطورة الأولى، فيمكن القول باطمئنان وتفاؤل: إن هذه الخطوة قد بدأت بالفعل.. بدأت بصحوة العالم الإسـلامى، وبحرصه على أن يعاود مسيرته من أجل التقدم .. بدأت بانتشار التعليم فى معظـم أرجاء العالم الإسلامى .. بدأت باطلاع المسلمين على أحوال الأمم التى سبقتهم فى مضمار التقدم المادى.. بدأ ذلـك كلـه ليهـئ الأرض لبـذور الأدب الإسـلامى، التـى نرجو من العاملين المخلصين أن يتعهدوها بالرعاية والعناية حتى تؤتى ثمارها فـى أقرب وقت.

ويهمنـى أن أنتهـز هـذه المناسبة لأوجـه كلمـة إلـى القـائمين علـــى الإعــلام العربى، والإسلامى، وهى تتمثل فى رجـاء حـار بتبنـى الأدب الإسـلامى، ورعايـة كتابه، ونشر نماذجه، فقد أصبح للإعلام فى عصرنا الحاضر قوة هائلة فى سـرعة التوصيل، واتساع مدى البلاغ.

ومن المؤكد أن الأدب الإسلامى ــ مهما التزم بشروطه، وأخلص الكتاب فى إنتاجه ــ سيظل محدوداً فى انتشاره، مالم تقم وسائل الإعلام المكتوبـة والمسـموعة والمرئية بدورها المطلوب، فى الاهتمام به، والعمل على نشره، وذيوعه ..

الأدب الإسلامى، والأجناس الأدبية

فى الماضى، كان الأدب الإسلامى مقصوراً على الشعر والنثر. أما الشعر فهو ــ كما نعلم ــ عبارة عن قصائد طويلة أو مقطعات قصيرة تتناول موضوعات، تم على مدى العصور الأدبية استقرارها، وهى المدح والفخر والرثاء والغزل والهجاء والوصف .. بل إن كل نوع من هذه الأنواع جرى العرف على أن يكون له نظام معين، عرف فيما عرف بـ "عمود الشعر".

ففى مجال المدح: يبدأ الشاعر بالغزل فى محبوبة حقيقية أو متخيلة، ثم يعرج منها على وصف رحلته الشاقة فى الصحراء، وما يتبع ذلك من وصف دقيق لناقته التى تحمله .. مضخماً بالطبع، الصعوبات التى صادفته، ثم ينتهى الأمر بأن كل شىء سيكون على مايرام بفضل الممدوح الذى قصده من هذا السفر الطويل، والذى سيعمل بالتأكيد على إعادته غانماً، ومحملاً بالعطايا والمنح.

أما النثر، فهو عبارة عن مراسلات كانت تجرى بين الأدباء، أو خطب كان يلقيها بعض البلغاء. وقد تم جمع نماذج كثيرة من هذه المراسلات والخطب، وأصبحت تمثل ما يطلق عليه "النثر العربى".

وفى إطار النثر شاع فى العالم الإسلامى ما يعرف بأدب القصاص، وهو عبارة عن حكايات متخيلة، تحكى مواقف معينة، بقصد التأثير فى الجماهير الذين كانوا يعجبون بها كثيراً، وينتهى بهم الحال بإعطاء صاحب القصة مبلغاً مناسباً، كان يتفاوت تبعاً لجودة القصة أو رداءتها.

ولأن هذه القصص كانت تلقى فى الغالب لعامة الناس، فإن اللغة الأدبية الراقية لم تكن تراعى تماماً فى صياغتها .. وهذا ما وصلنا فى قصة "ألف ليلة وليلة"، وقصة "سيف بن ذى يزن"، وقصة "الظاهر بيبرس"، وغيرها مما يمكن أن نطلق عليه الآن الأدب الشعبى فى العالم الإسلامى.

وعلى الرغم من قلة الأنواع الأدبية التى ظهرت لدى المسلمين فإن المتأمل فى موضوعاتها وفنونها يجد أنها كانت تلبى معظم حاجات المجتمع الأدبية، فتقدم له المتعة والتسلية، إلى جانب الحكمة، والموعظة، وتخاطب عقله كما تستثير خياله.

وكان القص الشفوى أو الإلقاء المواجه للجماهير هو وسيلة نقل هذه الأنـواع الأدبية .. بينما كان الاعتماد على القراءة لنصوص مكتوبة، مقتصراً علـى خاصـة من الناس، كانوا يتبادلونها بحرص شديد.

وفى العصر الحديث، بدأت المجتمعات الإسلامية تزيد من اتصالها بالغرب، فتجد فيه أنواعاً أخرى تتمثل فـى: القصـة القصـيرة، بمفهومهـا المحـدد، والروايـة الطويلـة ببنائهـا المحكـم، والمسـرحية بتخطيطهـا المسـبق، إلـى جـانب المذكـرات الشخصية، والسيرة الذاتية .. إلخ.

وكان من الطبيعى أن يتـم التبـادل الثقـافى والأدبـى، فـراح الأدبـاء العـرب، والمسـلمون يقبلـون علـى محاكـاة هـذه الأنـواع، وقـام عـدد مـن العـارفين باللغــات الأجنبية بترجمة العديد من نماذجهـا الغربيـة إلـى اللغـة العربيـة، ممـا أضـاف إلـى الأدب العربى والإسلامى ثروة جديدة، أخذت تتأصل مع مـرور الوقـت، حتـى بـدأ يظهر لدينا كتاب متخصصـون فى القصـة القصيرة، وآخرون فى الرواية، وآخـرون فى المسرحية..

ولم يتوقف الحال على مجرد الإجادة فى المحاكـاة، بـل إن عـدداً مـن كتـاب العرب والمسلمين، قد أظهر تفوقاً فى هذه الأجناس الأدبيـة الجديـدة، مـع اسـتمرار الشعر كجنس أدبى قديم، يحتـل فـى نفـوس النـاس مكانـة خاصـة.. ولـم يعـد للنـثر باعتباره نثراً، مكانة تذكر، اللهم إلا إذا تم وضعه فى إطار أدبى محدد.

إن هذه القوالب الأدبية، والفنية الجديدة التى تمت إضافتها إلى الأدب العربى والإسـلامى ينبغـى أن تكـون موضــع اهتمـام بـالغ مـن دعـاة الأدب الإسـلامى، باعتبارها قنوات اتصال معاصرة لإبلاغ الخطاب الإسـلامى الصحيـح مـن خلالهـا إلى القراء المعاصرين، سواء من المسلمين أو من غيرهم.

وليس من الضرورى أبداً أن تكون المسرحية ذات عنوان إسـلامى، أو ذات صبغة تاريخية لتكون مسرحية إسـلامية، فـالمهم هـو المضمـون، أو الرسـالة التـى تهدف لتوصيلها ..

إن موضوعاً معاصراً من الحيـاة الاجتماعيـة البسـيطة يمكـن أن يتـم تناولـه ليصبح رسالة إسلامية يكون لها فى نفوس القراء والمشاهدين، أبلغ الأثر ..

إننى أشير هنا إلى أحد المزالق التى يقع فيها كتاب "الأدب الإسلامى"؛ وذلك حين يظنون أن الإسلام، هو الماضى وحده، أو هو التاريخ وحده. على العكس، فالإسلام هو الماضى، والحاضر، والمستقبل، وينبغى أن يكون الأدب الصادر من منطلقاته شاملاً لهذه الأبعاد الثلاثة.

بقى أن أشير إلى جنس أدبى توجد له نماذج جيدة فى أدبنا العربى — الإسلامى، وقد شاع هذا الجنس الأدبى فى أوروبا، وله فيها لديهم كتاب كبار، وقراء على مستوى واسع. وهو الخواطر الذاتية التى يضع فيها الكاتب خلاصة تجربته فى الحياة، ويطلق عليها بالفرنسية: Journal.

ومن أهم النماذج التى أشير إليها فى هذا الصدد كتاب (صيد الخاطر) لابن الجوزى، الذى كتبه على هيئة خواطر يومية كانت تسنح له فى لحظات متفرقة، وتتعرض لمختلف الموضوعات النفسية، والأخلاقية، والاجتماعية، والذاتية، والفكرية، وأراد الرجل أن يسجلها لما وجده فيها من فائدة للآخرين. وخيراً فعل، فإن هذه الخواطر لمن يقرأها الآن تكاد تكون هى الخواطر التى ترد على روح المسلم وقلبه من وقت لآخر .. وسوف يجد فيها نفسه، ويستشعر فى أسلوبها السهل المبسط والبليغ فى نفس الوقت صدق العاطفة، وحرارة المشاعر، مع الالتزام بالتوجه الإسلامى الصحيح الذى سبق أن أشرنا إليه كشرط أساسى لأى أدب إسلامى.



الأدب الإسلامى بين المرح والتجهم

يظن البعض خطأ أن الأدب الإسلامى ينبغى أن يكون أدباً صارماً، جافاً. ولأنه سيأمر بالفضيلة، وينهى عن الرزائل، فسوف يصبح ضرباً من الخطب والمواعظ، ويبتعد بالتالى عن المرح، والترفيه عن النفوس.

والواقع أن هذه المقولة تحتوى على وهم كبير. فلا يوجد فى الإسلام ما يمنع المرح، ولا اللهو البرىء .. وإنما فيه ما يمنع العبث، واستثارة الغرائز، وكل ماهو مضاد للطبيعة البشرية فى صفائها وفطرتها.

كان الرسول ﷺ يمزح، ولا يقول إلا حقاً. وتلك إحدى الأسس التى ينبغى أن يتمسك بها الأدب الإسلامى. فالمزاح بدلاً من أن يتجه للاستهزاء من الآخرين، أو السخرية بالإنسان الذى كرمه الله تعالى، ينبغى أن يتجه وجهة إصلاحية بنائية. وكلنا نعرف الحديث النبوى، الذى قال فيه الرسول ﷺ: إن الجنة لا يدخلها عجوز، فانزعجت امرأة كبيرة فى السن لذلك القول كثيراً، ولكنه ﷺ، عاد فطمأنها ـ مبتسماً ـ بأن الله تعالى سوف يعيد الناس فى الآخرة إلى أفضل حالاتهم، وأنها ستصبح شابة.

بكل تأكيد هذا موقف مرح، ولكنه مرح برىء، ينتهى بمعلومة، عن الحياة الآخرة، لم تكن تعرفها المرأة، ولا الصحابة الجالسون حول الرسول ﷺ.

كان صهيب بن سنان مزاحاً. فقال له النبى ﷺ: أتأكل تمراً، وبك رمد؟!

فقال: يا رسول الله، إنما أمضغ على الناحية الأخرى!

وهكذا، فإن المرح المطلوب فى الأدب الإسلامى ينبغى أن ينطلق من أمثال هذه المواقف، حتى يمكنه بالتالى أن يغطى جوانب النفس البشرية فى حالتى الخير والشر، والرضا والغضب، والعدوانية والمسالمة ..

وفى الأدب الإسلامى، هناك عمل للجاحظ يظل نموذجاً رائعاً لأدب المرح الذى لا يخرج عن آداب الإسلام. كتب الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) كتاب "البخلاء"، مصوراً فيه بريشة الكاتب المتمكن، مواقف الإنسان تجاه ظاهرة البخل، التى كانت قد انتشرت على عهده.

ولايمكن أن نتصور كاتباً يريد أن يهاجم داء البخل المستشرى فى النفوس، والذى يمكن أن تكون له آثار سيئة على المجتمع، بغير الطريقة التى ألف بها الجاحظ كتابه. فالكتاب ملىء بالطرائف والنوادر التى ترسم البسمة على الشفاه، وقد تدفع للضحك فى أحيان كثيرة. وهذه الطرائف تكاد تتماثل مع الرسم الكاريكاتيرى الذى يركز على بعض العيوب فيكبرها، وما ذلك إلا لكى يتنبه لها أصحابها، ولكى يحذر من محاكاتها باقى أفراد المجتمع.

يورد لنا الجاحظ فى كتاب "البخلاء" نموذج البخيل الذى يبخل على نفسه، فيخرج الدرهم من كيسه، ويظل يخاطبه، ثم يعيده إلى مكانه، بدلاً من أن يشترى به لنفسه حاجة ضرورية، مستمتعاً فى ذلك بنار الحرمان على جنة الإنفاق.

ويقدم لنا نموذج البخيل الذى كان لا يعطى أمه إلا درهماً واحداً فى كل عام، وتهمس أمه لصديقتها قائلة: إنه كان أحياناً مايغالطها فى عام!

ويصور الجاحظ البخيل على زوجته وأهل بيته، عندما كانوا يشتهون شيئاً، فيذهب إلى السوق لشرائه، وعندما يلتقى بأحد الحواة، وقد لف على رقبته ثعباناً لكى يحصل من المشاهدين على درهم، فيقول لنفسه: إذا كان هذا الرجل قد عرض نفسه للهلاك من أجل درهم، فكيف أذهب أنا على قدمى لكى أنفقه من أجل رغبة عابرة لزوجتى، ويعود لها دون أن يشترى ما أرادت .. وهنا يعلق الجاحظ قائلاً: إن أهله كانوا يتمنون الخلاص منه .. حتى ولو بالموت!

وهناك العديد من نماذج البخل على الأقارب والأصدقاء، وعلى الخدم، وفى مجال العلاقات العامة.

ولاشك أن البخل داء مدمر للفرد، والمجتمع، فهو يحرم الفرد من الاستجابة حتى لمتطلباته الضرورية، لكن الأدهى أنه لا يصنع مجتمعاً متضامناً متكافلاً، يعطف فيه الغنى على الفقير، ويتواصل فيه الناس بالهدايا، والتبرعات.

ومن أجمل ما فى كتاب "البخلاء" للجاحظ أنه يحكى أنهم كانوا يكونون شبه جمعية، يجتمعون فيها لتذاكر أصول البخل، ويعاتبون بعضهم بعضاً على ما يرتكبونه أحياناً من تهمة الإنفاق.

وعندما يذكر الجاحظ اسم أحدهم، يسرع فيقول لقرائه: لاتظنوا بى شراً، فتقولون إن أبا عثمان (يعنى الجاحظ نفسه) يشهر بأصحابه. فإن هذا الشخص الذى ذكرت اسمه لكم لو علم أنى تحدثت عن نوادره فى البخل دون أن أذكر اسمه لغضب منى كثيراً. فهو حريص على أن يعرف شخصه حتى يتجنبه الناس، وحينئذ لا يطمعون فى شىء من ماله، ولايقتربون منه طالبين شيئاً، أو سائلين معروفاً.

إن كتاب "البخلاء" للجاحظ يعد تحفة نادرة من الأدب الإسلامى المكتوب باللغة العربية .. وقد أدرك العالم كله قيمته، فتمت ترجمته إلى الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، وغيرها من اللغات الحية .. ويمكن اعتباره من صميم الأدب الإسلامى، أى الذى يصدر عن أديب مسلم، يحرص فى نفس الوقت على الالتزام بقيم الإسلام، ومبادئه السامية.

كذلك سوف نلتقى فى الموسوعات الأدبية العربية بأقسام بكاملها تتحدث عن المواقف الضاحكة، وتشيع البهجة والمرح فى نفوس قرائها .. ومن الأمثلة على ذلك: كتاب "الكامل" للمبرد، و "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه، و "المعارف" لابن قتيبة. و"زهر الآداب" للحصرى. كما أن هناك مؤلفات قصد بها أصحابها قصداً إلى إشاعة البهجة فى نفوس قرائها، ومن أشهر الأمثلة على ذلك كتاب "المستطرف فى كل فن مستظرف" للأبشيهى.

إن هذا كله يثبت ويؤكد ماذهبنا إليه من أن الأدب ينبغى أن يخاطب النفوس فى حالتى سرورها وحزنها، وفى جانبى سعادتها، وشقائها. والأدب الجيد الذى يتسم بالعالمية، هو الأدب الكامل الذى يخاطب العقل، والقلب، والوجدان. ومن المؤكد أن القلوب تصدأ، وأن قدراً من الابتسام هو الذى يجلو صدأها. وأن النفوس قد تتبلد من فعل العادة المتكررة، وأن قدراً مستحباً من المرح هو الذى يخرجها من بلادتها، وكآبتها.



الأدب الإسلامي والأشكال المستحدثة

ظهر في العصر الحديث ما يسمى بالمسلسل التلفزيوني، الذي تطور عن المسلسل الإذاعي، وهذا تطور بدوره عن المسلسل القصصي أو الروائي، الذي كان ينشر على حلقات في الصحف، والمجلات، والذي كان يعرض أحياناً على هيئة صور متلاحقة، تحكي قصة معينة.

شاع هذا اللون أولاً في أوروبا وأمريكا، واستطاع بسبب الكفاءة الفنية العالية، في التصوير، والإخراج الفني، أن يكون له تأثير كبير في الجماهير. وكما أشرت الآن، فقد بدأ هذا اللون الجديد في عرض روايات مسلسلة، عن طريق الصور المتلاحقة في مجلة أسبوعية، بل إن بعض المجلات تخصصت بالكامل في نشر هذا اللون الذي كان إقبال القراء عليه منقطع النظير.

ومن صفحات المجلات، انتقلت المسلسلات (أي الرواية المجزأة في حلقات) إلى الإذاعة أولاً، ثم إلى التلفزيون، بعد ذلك.

وقد وجد كتاب هذا اللون الجديد من القراء في البداية، ثم من المستمعين للإذاعة، وأخيراً من المشاهدين للتلفزيون، استجابة هائلة فاقت كل تصور، فأقبلوا على كتابتها، وشجعهم على ذلك ما تدره من ربح وفير، ليس على الكتاب وحدهم، وإنما على المخرجين، والممثلين، والفنيين المشتركين فيها .. وأخذت تلفزيونات العالم كله تتسابق، بل تتنافس في إنتاج المسلسلات، وتنفق عليها بسخاء، حتى أصبحت حالياً هي أهم ما يقبل عليه الجماهير بلا استثناء (تشير إحصائية حديثة إلى أن نسبة مشاهدة التلفزيون في بعض البلاد العربية حين إذاعة المسلسل التلفزيوني اليومي تتجاوز الـ (٩٠٪) وفي البلاد الغربية تقترب من (٧٠٪).

والواقع أن نجاح هذا النوع الأدبي الجديد، يرجع لعوامل اجتماعية، وثقافية. فالإنسان المعاصر، لم يعد لديه وقت كبير للقراءة، التي تحتاج منه إلى جهد، وتتطلب مكاناً هادئاً، ووقتاً كافياً، ونوعية جيدة من الكتب التي تشد انتباهه، وهو يعود من عمله في آخر اليوم مرهقاً. وكذلك المرأة التي تظل تعمل في الخارج، أوفي المنزل تحتاج إلى قدر من الراحة. وينتهز التليفزيون عادة وقت الراحة فيقدم المسلسل في وقت فراغ الأسرة، التي يلتئم شملها حوله، ومع مرور الوقت ترتبط

بموضوع المسلسل، وتتابع مشكلات أبطاله، وتتدخل أحياناً باقتراحاتها وحلولها الخاصة. وعندما تلتقى الأسر بعضها ببعض تتحدث عن المسلسل، وكفاءته، أو هبوطه، وبذلك، تحوله إلى مادة للحديث والتسلية. وهكذا أصبح هذا النوع الأدبى الجديد موضع اهتمام بالغ من الإنسان فى العصر الحديث.

وهناك مسلسلات تليفزيونية، يمكن أن نقول عنها إنها أصبحت عالمية، بسبب عرضها ومتابعتها فى أكثر بلاد العالم، رغم أنها من إنتاج بلد معين. والسبب فى ذلك، يرجع إلى عوامل منها: الذكاء فى اختيار موضوعات تهم الغالبية من البشر، وتتجاوز حدود المكان. كما أنها تستفيد فى أحيان كثيرة من الوسائل الفنية الحديثة، التى تجذب انتباه المشاهدين، بالإبهار، والإغراب، وغيرهما. وقد تبين من متابعة المسلسلات التليفزيونية ذات الصبغة العالمية، أنها تتطلب، قصة جيدة، يصوغها كاتب متمكن، قادر على جذب انتباه المشاهدين، كما أنها تحتاج إلى إخراج متميز، وممثلين أكفاء، وإمكانيات فنية، ومادية كبيرة. ومن الواضح أن هذا كله لايضيع سدى، فهو يعود بمردود مادى على أصحابه، كما أنه يقوم بدور هام فى تشكيل وجدان الناس، ويؤثر بالضرورة فى سلوكياتهم.

وهنا لابد أن نتساءل: إلى متى يظل الأدب الإسلامى بعيداً عن استغلال هذه الإمكانية الرهيبة؟ ولماذا لايقوم دعاته باستغلال تلك الفرصة التى يتيحها؟

ولكننى أسرع فأنبه إلى أن المسألة ليست بسيطة كما يتصور البعض. فلابد من الدراسة المتأنية، والإعداد الجيد، وتوفير الإمكانيات اللازمة. ويبقى أن أحد أهم عناصرها، وهو الكاتب الكفء الموهوب، لم يظهر بعد ..

وهكذا نلاحظ أن الطريق طويل، ولكن لابد من السير فيه، وخاصة إذا أدركنا قيمة ما يعود على المسلمين من خلاله. إن الإسلام رسالة، ولابد للرسالة من بلاغ. وأعتقد أنه مامن أحد يمكنه أن يقصر أسلوب هذا البلاغ على خطبة المسجد فقط، أو على الكتاب فقط، أو على الموعظة المباشرة فقط ... وإنما البلاغ قول، وعمل .. كلمة وقدوة .. وكذلك موقف درامى يمكن تقديمه، حتى يدرك الناس من خلاله حقيقة الخير، وسوء مآل الشر ...

ومادام هذا النوع الأدبى الجديد، قد استحوذ بهذه الصورة على عقول الناس، ومشاعرهم، فلابد من استغلاله .. وتلك إحدى الإمكانيات المفتوحة أمام الأدب الإسلامى ..

ومن المقرر أن الإنسان مجبول على حب سماع الأخبار، وعلى مشاهدة ما يحدث لغيره. وقد أدرك هذه الحقيقة طائفة القصاص فى العالم الإسلامى قديماً، فقدموا للناس حشداً هائلاً من القصص الواقعية ــ أحياناً ــ والخيالية فى معظم الأحايين. وقد استجاب لها الناس بشدة، وأقبلوا على رواتها فى إصغاء عجيب، كان ينتهى دائماً بمكافأتهم لقاء ما قدموه لهم من متعة قصصية مشوقة ..

وليست "ألف ليلة وليلة" وقصة "سيف بن ذى يزن" وقصة "الظاهر بيبرس" الشعبية، وغيرها، إلا مسلسلات شعبية انتشرت فى شتى أنحاء العالم الإسلامى، وكان لها من يتابعها بشغف، ويصغى إليها باهتمام ..

وهكذا فإن دعوتنا هنا لاستغلال إمكانية المسلسلات التليفزيونية، فى الأعمال الأدبية الإسلامية، ليست إنشاءً لشىء جديد تماماً، على العقلية العربية، أو الذوق العربى .. وإنما هى مجرد استمرار لتقليد قديم، لكنه يحتاج فقط إلى الاستعانة بالوسائل الفنية التى بلغت مستوى عالياً فى هذا الصدد.



الأدب الإسلامى والنقد الأدبى

لايوجد أدب بدون نقد. فالنقد هو الذى يكشف عن جوانب الجودة والجمال فى الأدب، كما أنه هو الذى ينبه إلى مواطن الضعف، والقبح فيه. والنقد الجيد مقياس دقيق، ودليل صادق، يساعد القراء على حسن اختيار النماذج الأدبية الرائعة، كما أنه يساعد الأدباء على تحسس مواطن أقدامهم، ومراجعة أسلوب عملهم من أجل التجويد والتحسين المستمرين.

والأديب الردىء هو الذى يغضب من النقد. فالناقد مرآة الأديب، يمكن لهذا الأخير أن يرى فيه صورته الحقيقية، ليس فقط بالنسبة لنفسه، وإنما أيضاً بالنسبة للأدباء الآخرين .. وبالطبع أستبعد هنا، تماماً، النقد الذى يصدر عن أغراض شخصية همها التجريح، والتشهير، أو الانتقام والتشويه.

ومنذ ظهر الأدب فى العالم صاحبه النقد. والأديب الحقيقى ينقد نفسه، قبل أن ينقده الآخرون. لكن نظرة الإنسان لنفسه، لن تكون أبداً منصفة، ولاموضوعية، لأن الطبيعة البشرية مجبولة على حب المديح، وبغض التقويم. وقليل من الناس هم الذين يقبلون من الآخرين إصلاح أحوالهم. وكثير من الأدباء لايقبلون أى كلمة استهجان لأعمالهم، مع أننا لو سألناهم عن رأيهم فى أعمال غيرهم لما ترددوا فى وصفها بالعيوب والنقص.

لكن النقد الجيد الصادر من ناقد يحترم كلمته، ويقصد النهوض بأدب أمته، قلما يخون القارىء والأديب. وهو مطالب بأن يكشف عن الحقيقة، ويقدر بميزان الصيرفى قيمة الأدب، وبالتالى مستوى الأديب بين أدباء عصره.

وإذا كنا بصدد الحديث عن أدب إسلامى، فلابد من أن يصحبه ويتبعه بالضرورة نقد أدبى. وإذا كان النقد الأدبى الغربى فى بعض مذاهبه واتجاهاته لايقيم اعتباراً للجوانب الروحية والأخلاقية، فمن واجبنا هنا أن نذكر بأن نقد الأدب الإسلامى ينبغى أن يتميز عنه فى الاهتمام بهذا الجانب. فهناك مسلمات فى الإسلام، أو بلغة العصر الحديث، ثوابت لاينبغى على أى عمل أدبى أن يتعارض معها أو يضعها موضع الشك، أو الاحتمال. لدينا العقيدة، والشعائر، والأخلاق، والتشريعات الإسلامية، المجمع عليها، وبالتالى فإن هذه المسلمات أو الثوابت

ينبغى أن تكون موضع اهتمام الناقد للأدب الإسلامى، بل إن الأدب الإسلامى نفسه، لا يستحق أن يسمى بذلك دون أن يصدر عن هذه الثوابت، ويداوم على تأكيدها واحترامها.

وعلى الناقد للأدب الإسلامى ألا يتحرج على الإطلاق من رفض أى عمل أدبى – حتى لو ارتفعت قيمته الفنية — وإدانة مضمونه إذا خرج عن إطار تلك المسلمات والثوابت. ولاينبغى أن يخيف ذلك أحداً، فإن الإسلام دين موجه للبشر جميعاً، وهو صالح لكل زمان ومكان، ومن هنا فإنه يتسع بمساحته للتعبير عن كافة احتياجات الإنسان: المادية، والروحية، والشخصية، والاجتماعية .. ثم إن ناقد الأدب الإسلامى، مطالب بعد ذلك بتطبيق أفضل ما توصل إليه فن النقد الأدبى فى العالم على العمل الأدبى الإسلامى، دون تحرج أو خشية، مع أن الأمر هنا لن يخرج عن إطار الأساليب، والوسائل الفنية، والمهارات الأدبية.

إن ظهور نقد أدبى بهذه الصورة سوف يكون فتحاً جديداً فى مجال النقد الأدبى العالمى، بل إن نقاد الأدب الإسلامى بإمكانهم أن يطبقوا معاييرهم الأخلاقية بالإضافة إلى مقاييسهم الفنية، على أى عمل أدبى فى العالم، وحينئذ سوف يتضح للجميع أن ما يطالب به هؤلاء النقاد هو نفسه ما تتطلبه القيم العليا، والمبادئ السامية.

فى العصر العباسى، قال أحد نقاد العرب إن "الدين إذا دخل الشعر أضعفه" وتلك مقولة خاطئة، أو على الأقل قاصرة، فربما نفهم منها أنه يريد أن يقول إن الشعر ينبغى أن يستخدم لغة الوعظ المباشر، والنصح المرتفع النبرة. ومع ذلك فإن الدين شىء، وأساليب الوعاظ به شىء آخر. فلكل منهم أسلوبه، وطريقته، ومنهجه. أما الدين كمبادئ وسلوكيات، كمثل عليا وأخلاق، فإنه من الضرورى أن يكون الهدف الأخير من أى عمل أدبى جيد، يطمح لأن يخاطب البشر جميعاً، بعد أن يتجه بخطابه أولاً إلى أبناء أمته ..

ويبقى دائماً أن إضافة البعد الإسلامى الخالص إلى مقاييس النقد الأدبى، القديم والمعاصر سوف تكون لها نتائج كبيرة فى إعادة تقييم الأعمال السابقة، التى مازلنا نعلمها لأبنائنا حتى اليوم، وفى تصحيح النظرة إلى الأعمال الأدبية الحديثة، التى يسرع بعضنا بالتصفيق لها قبل أن يدرك مدى خطورتها على القيم والأخلاق.

لكن ظهور نقد أدبى يواكب الأدب الإسلامى مرتبط دائماً بالنقاد الحاليين، ومدى تقبلهم لأهمية هذا الأدب النابع من واقع الشعوب الإسلامية، والمعبر بصدق عن روح الأمة الإسلامية.

وأعتقد أنه قد آن الأوان ـ بالنسبة لهؤلاء النقاد ـ أن يشعروا بالانتماء، أكثر فأكثر، لأمتهم الإسلامية، وأن يرتبطوا، أكثر فأكثر، بقيم الدين الإسلامى الذى هو قوام وجود هذه الأمة، وطريق مستقبلها. وكما يبذل هؤلاء النقاد جهداً كبيراً، ووقتاً أكبر فى معايشة النقد الغربى، واستلهام مبادئه ومعاييره، يصبح عليهم واجب دينى وقومى، وهو أن يبذلوا مثل هذا الجهد، والوقت فى معايشة الأدب الإسلامى، ثم القيام بعد ذلك بالوظيفتين اللتين هما دائماً من أهم وظائف النقد الأدبى: وهما تحليل الأعمال الأدبية الإسلامية، بقصد بيان عناصر الجودة فيها، وتبصير القراء بالنماذج المتميزة، وأسرار هذا التميز.



الأدب الإسلامي ونقده

(نموذج من التراث)

البحث فى التراث الثقافى فى الإسلام، يقود غالباً إلى اكتشافات لم تكن متوقعة، وقد سبق أن طالبت بضرورة قيام نقد أدبى إسلامى، يتم على أساسه تقييم الأعمال الأدبية الإسلامية، على أن يكون من ثوابت هذا النقد محاسبة العمل الأدبى فى المقام الأول على مدى التزامه بالتوجه الإسلامى، وعدم تعارضه أو تناقضه مع القيم والمبادئ التى أرساها الإسلام.

وفى أثناء بحثنا عن مثل هذا النوع من النقد عثرنا فى تراثنا العربى والإسلامى، على نص فى غاية الأهمية لابن الجوزى (ت ٥٩٥ هـ)، وذلك فى واحد من أهم كتبه التى نالت شهرة، وحظيت بذيوع كبير فى مجال نقد التصوف، وبيان أخطاء المتصوفة، وكشف ما أحدثوه من البدع التى تتعارض مع صفاء الدين الإسلامى.

والكتاب المشار إليه هو "تلبيس إبليس"، وقد وضع له بعض الناشرين عنواناً فرعياً هو "نقد العلم والعلماء"، لكنه عنوان غير دقيق، وعنوان المؤلف لكتابه أدق فى التعبير عن الموضوع الذى يطرقه. أما معنى كلمة "التلبيس" فيشرحها المؤلف، على النحو التالى: "لما فشت الأهواء، وكثرت البدع، نهض إبليس اللعين يلبس أى يموه الباطل فى صورة الحق، والخطأ فى شكل الصواب، مستغلاً شيوع الجهل، وقلة العلم "، يقول ابن الجوزى: "فرأيت أن أحذر من مكايده، وأدل على مصايده؛ فإن فى تعريف الشر تحذيراً عن الوقوع فيه. ورد فى الصحيحين من حديث حذيفة قال: "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركنى".

وقد نهض ابن الجوزى — بهذا العمل على خير وجه. فقد بين فى هذا الكتاب أهم المزالق الأخلاقية، والنفسية، والاجتماعية، التى يقع فيها العلماء، والصوفية، والوعاظ، ومن بيدهم مقاليد أمور المسلمين، وهم فى نفس الوقت يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وقد خص ابن الجوزى طائفة الشعراء بفقرة من فصل، عاب عليهم فيها أنهم يحسبون أنفسهم قد تميزوا عن سائر الناس بميزة، وأن هذه الميزة تشفع لهم ما يرتكبونه من المعاصى، أو ما يقعون فيه من الزلل.

يقول ابن الجوزى: "فتراهم يهيمون فى كل واد من الكذب، والقذف والهجاء، وهتك الأعراض، والإقرار بالفاحش، وأقل أحوالهم أن الشاعر يمدح الإنسان فيخاف أن يهجوه، فيعطيه اتقاء شره، أو يمدحه بين جماعة فيعطيه حياء من الحاضرين. وجميع ذلك من جنس المصادرة (وهى تعنى الابتزاز بلغتنا المعاصرة).

وترى خلقاً من الشعراء، وأهل الأدب، لا يتحاشون من لبس الحرير، والكذب فى المدح خارجاً عن الحد، ويحكون اجتماعهم على الفسق، وشرب الخمر، وغير ذلك، ويقول أحدهم: اجتمعت أنا وجماعة من الأدباء ففعلنا كذا وكذا...هيهات هيهات !! ليس الأدب إلا مع الله عز وجل باستعمال التقوى، ولا قدر للفطن فى أمور الدنيا، ولا تحسن العبارة عند الله إذا لم يتقه.

وجمهور الأدباء والشعراء إذا ضاق بهم رزق تسخطوا فكفروا، وأخذوا فى لوم الأقدار، كقول بعضهم:

لئن سمتْ همتى فى الفضل عاليةً
فإن حظى ببطن الأرض ملتصقُ
كم يفعل الدهر بى مالا أسرُ بــه
وكــم يسىء زمان جائــر حنــقُ

وقد نسى هؤلاء أن معاصيهم تضيق أرزاقهم، فقد رأوا أنفسهم مستحقين للنعم، مستوجبين للسلامة من البلاء، ولم يتلمحوا مايجب عليهم من امتثال أوامر الشرع، فقد ضلت فطنتهم فى هذه الغفلة".

وهذا النص فى الحقيقة نص نادر، وعلى درجة عالية من القيمة، فى مجال النقد الأدبى الإسلامى المنشود. فهو لم يذهب مذهب الرفض القاطع للشعر أو للأدب كما ذهب إلى ذلك فريق لايعرف أهميتهما فى حياة المجتمع، ولكنه وضع بعض الأسس الهامة التى ينبغى أن تراعى فى نظرة المجتمع، وبصورة أخص فى نظرة النقاد، إلى الأدب الذى يتم إنتاجه، فى العالم الإسلامى، وكذلك إلى الأديب الذى ينتج هذا الأدب.

فهذا الأديب ينبغى أن يتجرد عن التكسب بالأدب، وهذا معناه أن يتوجه بأدبه إلى التقويم، والتوجيه، وإلى الصالح العام، كذلك ينبغى أن ينأى عن أساليب الابتزاز، باستخدام الأدب كعنصر تهديد لفرد أو لجماعة آمنة داخل المجتمع الإسلامى.

ويدين ابن الجوزى تصرفات بعض الأدباء المسلمين. فلا ينبغى — تحت مظله الاشتغال بالأدب، وإعجاب الناس بهم — أن يرتكبوا المحرمات كلبس الحرير، أو شرب الخمر، فضلاً عن التباهى بارتكاب المعاصى. وابن الجوزى هنا يدرك جيداً، تأثير الأديب كقدوة، فى المجتمع الإسلامى، لذلك فإنه يتطلب منه أن يكون على مستوى المسئولية، وهو يدعو كل أديب إلى أن يراعى حق الله فى كل ما يكتب، فإن العبارة لاتحسن مع الله إذا لم يتقه.

وأخيراً، فإن ابن الجوزى يرفض موضوعاً شاع فى الأدب العربى على ألسنة الشعراء، والكتاب المسلمين، وهو شكوى الزمان وذم الدهر، الذى لم يعطهم مايستحقون من الثروة والنعيم.

إن هؤلاء الحمقى، ينسون أو يتناسون أن للثروة أسبابها، وأن النتائج إنما تأتى من المقدمات، ولا ثمرة إلا بعد إعداد الأرض، وبذرها، وسقيها، ورعايتها على امتداد فترة طويلة، من أجل النماء والنضج.

لقد غابت مع الأسف ملاحظات ابن الجوزى على الشعر والأدب فى غمرة المؤلفات الدينية، التى وضعها هذا العالم الكبير، ولم يتنبّه نقاد الأدب العربى الذين جاءوا بعده إلى قيمة هذا النص النادر فى كتاب "تلبيس إبليس". ونحن إنما ذكرناه هنا، وحاولنا التعليق السريع عليه، لننبه إلى أن فى تراثنا العربى الإسلامى، مقاييس صالحة لإقامة أركان نقد أدبى إسلامى عليها. وكل ما ينبغى علينا هو التنقيب عنها، واستخلاصها، ثم إلقاء الضوء الكاشف عليها، وبذلك يمتد التراث فى المعاصرة، ويتواصل الماضى مع الحاضر.



المدائح النبوية

من بين الموضوعات التى تنتظم فى سلك الأدب الإسلامى: موضوع المدائح النبوية. وهو فى إطار الشعر العربى يكاد يكون فناً قائماً بذاته. وهو فن يتميز بالاستمرارية من ناحية، وبإقبال الناس عليه من ناحية أخرى. أما بالنسبة إلى الاستمرارية، فيكفى أن نتتبعه، بدءاً من دالية الأعشى، التى يقول فيها عن الرسول ﷺ :

نبياً يــرى مــالاترون، وذكــره ... أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
لــــه صدقات مــــاتغيب، ونائل ... وليس عطاءُ اليوم مانِعَه غدا

ومروراً بقصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير التى يقول فيها:

إن الــرسول لنــور يستضاء به ... وصارم من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطــن مكة لما أسلموا زولوا

ويقال إن الرسول ﷺ استمع إليها، وأعجب بها، وخلع على صاحبها بردته التى ظل معتزاً بها، إلى أن اشتراها منه معاوية ابن أبى سفيان بعشرين ألف درهم.

ثم قصائد حسان بن ثابت، الذى أطلق عليه لقب (شاعر الرسول)، والذى قام فى مرحلة استقرار الدولة الإسلامية بدور إعلامى هام فى الرد على دعايات المشركين، وتفنيد مفترياتهم، يقول :

فمــن يهجو رســول الله منكم ... ويمدحــه وينصــــره ســـواء

فـــإن أبـــى ووالده وعرضى ... لعـــرض محمــــد منكم وقاء

وهو الذى يقول فى الرسول ﷺ :

وأحسن منـــك لم ترقط عينى ... وأجمــل منـــك لم تلد النساء

وعندما يلحق الرسول الكريم ﷺ بالرفيق الأعلى، تتوالى مراثى حسان باكية، حزينة، ومنها يقول:

ومـــا فقد الماضون مثل محمد ... ولامثلـــه حتـــى القيامـــة يفقد

ويتمنى اللحاق به للتمتع بجواره:

وليس هوائى نازعاً عــن ثنائه لعلـــى بـــه فى جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

وسوف يظل مديح الرسول ﷺ موضوعاً عزيزا يتناوله الشعراء، حتى يصل إلى البوصيرى (ت ٦٩٧ هـ) الذى كتب قصيدته الشهيرة: (البردة)، وهو فيها متأثر بإحدى قصائد ابن الفارض وزناً وقافية، ومطلعها:

أمــن تـــذكر جيران بذى سلم مزجـت دمعاً جـرى من مقلة بدم
أم هبـت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم

وفيها يتحدث عن الرسول ﷺ ، فيقول :

أعيا الورى فهمُ معناه، فليس يُرى للقـرب والبعـد منـه غيـرُ منفحمِ
كالشمس تـــظهر للعينين مـن بعد صغيــرة، وتـكل الطـرف من أمم
وكيف يـدرك فى الـــدنيا حقيقته قـــوم نيـــام تسلـوا عنـــه بالحلم
فمبلـــغ العلـــم فيـــه أنـــه بشـر وأنـــه خيـــر خلـــق اللـــه كلـــهم
أكـــرم بخلـــق نبـــىٍّ زانـــه خُلقُ بالحســـن مشتمـل بـالبشر متسم
كالزهر فى ترف، والبدر فى شرف والبحر فى كرم، والدهر فى همـم

وقد كان للحكايات الصوفية، التى نشأت حول هـذه القصيدة، أثر كبير فى محاولة الشعراء اللاحقين محاكاتها، والنسْجَ على منوالها.

ومن أبرز الشعراء القدامى الذين حاكوا بـردة البُوصـيرى: ابـن نباتـة المصرى (ت ٨٣٧ هـ.) فى قصيدته التى يقول فيها:

لى فى ابتدا مدحكم ياعُربَ ذى يلَم بـراعة تستهلّ الـدمع فى العلم
بالله سربى، فسربى طلقوا وطنـى وركبوا فى ضلوعى مُطلق السقم

ثم ينتقل من النسيب إلى المديح، فيقول:

ومَنْ غدا قسمه التشبيب فى غزل حسنُ التخلص بالمختار من قسَمى
محمـــد، ابـــن النجيبين، الأميـــن أبو البتول، خير نبى فى اطرادهم
عيـــن الكمال كمال العين رؤيتـــه ياعكس طرف من الكفار عنه عمى

أما فى العصر الحديث، فقد بدأ البارودى محاولة النهوض بالشعر العربى عن طريق محاكاة نماذجه القوية وكتب: يمدح الرسول (ﷺ):

يا صارم اللحظ من أغراك بالمهج حتى فتكت بــها ظلماً بــلا حرج

***

هــو النبــى الـذى لـولا هـدايته لكان أعلم من فى الأرض كالهمج
أنـا الذى بت مـن وجدى بروضته أحـن شوقـا كطير البانة الهزج
هاجت بذكراه نفسى فاكتست ولها وأى صب بذكـر الشوق لـم يهج

لكن أحمد شوقى جاء بعد ذلك، فكتب "نهج البردة" مشيراً إلى المحاكاة المباشرة، ومعترفاً فى العنوان نفسه، بفضل البوصيرى فى ارتياد هذا الطريق.

والواقع أن قصيدة شوقى قد بلغت مستوى فنياً عالياً، وجمعت فى نفس الوقت بين الالتزام بالتوجه الإسلامى، والجودة الأدبية، وهما معاً يؤهلانها لكى تصبح أحد النماذج المتميزة للأدب الإسلامى المنشود.

يقول أحمد شوقى فى مطلع نهج البردة:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحـرم
رمى القضاء بعينى جؤذر أسداً يــاساكن القاع أدركْ ساكــن الأجمِ
لما رنـا حدثتنــى النفس قائلةً ياويح جنبك بالسهم المصيب رمى
جحدتها، وكتمتُ السهم فى كبدى جرح الأحبة عندى غيـر ذى ألـم

ثم ينتقل بعد أبيات كثيرة فى النسيب، الذى تتخلله ألوان من الحكمة، التى كان شوقى يحرص على إيرادها فى شعره، من مثل قوله:

رزقت أسمح مافى الناس من خلق إذا رزقت التماس العذر فى الشيم

وقوله:

يـانفس، دنيــاك تخفى كل مبكية وإن بـدا لـك منها حسـن مبتسم

وقوله: الموت بالزهر مثل الموت بالفحَمَ

ثم يخلص إلى مديح الرسول ﷺ فيقول:

محمــد صفــوة البــارى ورحمتــه   وبغيــة المــلك من خَلْق ومن نَسم
وصاحب الحوض يوم الرسل سائله   متى الورود؟ وجبريل الأمين ظمى!
ونــودى اقــرأ، تــعالى الله قائلها   لــم تتصــل قبــل من قيلت له بفمِ
هنــاك أذن للــرحمن فــامتــلأت   أسمـــاع مكـة مــن قـدسيةِ النغمِ

ثم يقول عن معجزة الإسلام الخالدة:

جــاء النبيون بــالآيات فانصرمت   وجئتنــا بحكيــم غيــر منصــرمِ
آيــاتــه كــلما طــال المــدى جدد   يــزينـــهن جــلالُ العتــق والقدم
يــكاد فــى لفظــة منـــه مشرفة   يــوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

وهكذا نجد أن قصائد المديح النبوى تضم ألواناً من تمجيد القرآن الكريم، ومن التركيز على بعض القضايا الإسلامية، ومـن الرد علـى بعض المفتريات .. مثل قول شوقى يرد على دعوى انتشار الإسلام بالسيف:

قــالوا: غزوت، ورسل الله مابعثوا   لقتــل نــفس، ولاجــاءوا لسفك دمِ
جهــل، وتضليل أحــلام، وسفسطة   فتحــت بالسيــف بعد الفتح بالقلم
لما أتــى لك عفواً كــل ذى حَسَب   تكــفل السيــف بــالجهــال والعمم
والشــر إنْ تلقه بــالخير ضقت به   ذرعــاً، وإن تلقـــه بــالشر ينحسم

وقد كان لأحمد شوقى ـ سوى نهج البردة ـ قصيدتـان أخريـان، لا تقـلان عنها روعة، وبلاغة ..

أما الأولى فهى (ذكرى المولد) التى مطلعها:

سلـــوا قلبـــى غـــداة ســلا وتابا   لعـــل علـــى الجمـــال لـــه عتابا
ويســأل فـــى الحوادث ذو صواب   فـــهل تـــرك الجمال لـــه صوابا

أما القصيدة الثانية فهى (الهمزية النبوية) التى يقول فى مطلعها:

ولــد الهـــدى فــالكائنات ضيـاءُ   وفــم الــزمـــان تبســـم وثنـــاءُ
الـــروح والمـــلأ المــلائك حوله   للـــدين والـــدنيـــا بـــه بشـــراء
والعرش يزهو، والحظيرة تزدهى   والمنتهـــى، والســدرة العصمـــاء
وحديقـــة الفرقـــان ضاحكـة الربا   بـــالترجمـــان شذيـــة غنـــــاءُ

والوحـــى يقطـر سلسلاً من سلسل ... واللـــوح والقلـــم البديـــع رواء
نظمت أسامى الرسل فهى صحيفة ... فـــى اللـــوح، واسم محمد طغراءُ
اســـم الجـــلالة فـــى بديع حروفه ... ألـــف هنـــالك، واســـم (طه) الباء

وهكذا نرى أن فن المدائح النبوية يمثل موضوعاً رئيسيا من موضوعات الأدب الإسلامى، وهو فن قابل للإضافة إليه، والتجويد فيه، والكتابة عنه، فى كل عصر، بروح صادقة، وأساليب جديدة.

۞۞۞

ذكـرى المولـــد النبـــوى

سبق أن تحدثنا عن المدائح النبوية كفن اتخذ لنفسه مجرى خاصاً فى تاريخ الأدب العربى. ونود أن نشير هنا إلى أن شعراء المدائح النبوية، كانوا يكتبون قصائدهم دون التقيد بمجىء ذكرى موسمية معينة .. ولكن مع مرور الوقت، أخذت بعض البلاد الإسلامية تحتفل فى كل عام بذكرى مولد الرسول ﷺ، ويتخذ هذا الاحتفال بعض المظاهر الاجتماعية، تبعاً لعادات، وتقاليد المجتمعات الإسلامية المختلفة، كما يتخذ أيضاً مظهراً ثقافياً، تلقى فيه القصائد والخطب والكلمات، التى تشيد بأخلاق الرسول ﷺ، وتتحدث عن عظمة الإسلام، كما تنبه المجتمعات الإسلامية إلى ضرورة التمسك بالأصول الإسلامية، واتخاذ الرسول ﷺ كقدوة دائمة، مع التزود المستمر من أقواله، وأفعاله.

وفى مثل هذه الاحتفالات الثقافية، كان الشعراء يجدون الفرصة المواتية، لإظهار مواهبهم الأدبية، عن طريق إلقاء القصائد التى تعبر عن أحاسيسهم، وتصور مشاعرهم، متغنية فى نفس الوقت بخلال صاحب الذكرى العطرة.

هنا كان على الشاعر أن يستعد للمناسبة السنوية، بكتابة قصيدة، تكون ملائمة للزمان، والمكان اللذين يتم فيهما الاحتفال. وبعض الاحتفالات كانت تقام فى القرى، والبعض الآخر فى المدن. بعضها كان محدوداً، والبعض الآخر ـ عن طريق وسائل الإعلام الحديثة ـ صار على نطاق واسع جداً.

وهكذا راح يتكون فن آخر، فى إطار المدائح النبوية، وهو الفن الخاص بذكرى المولد النبوى الشريف.

ونحن هنا لانتعرض لاستحداث الاحتفال بالمولد النبوى، فمن المؤكد أنه غير موجود، ولا موصى به فى الصدر الأول للإسلام .. ولكنه هكذا تكون فى داخل المجتمعات الإسلامية، وأصبح معترفاً به من عدد كبير من الحكومات. والدليل على ذلك أن بعض الدول الإسلامية تتخذه أجازة رسمية، وفيه يتبادل الرؤساء العرب والمسلمون التهانى والتبريكات.

إن مثل هذا الفن الذى نشأ وتطور، وتكونت فيه ـ حتى الآن ـــ مادة كبيرة جداً، أصبح يدخل بالضرورة فيما يطلق عليه "الأدب الإسلامى". ولاينبغى أن

نخشى من ذلك أبداً. فما دامت معايير "النقد الأدبى الإسلامى"، التى تصاحب وتتابع الأدب الإسلامى نفسه ـ قائمة، ومحترمة، فسوف يتم فحص هذا الحشد الهائل من قصائد الذكرى النبوية، بل وتجرى المقارنة بين نماذجها المختلفة، لبيان قيمة كل منها، تمهيداً لتصنيفها، ووضعها فى مكانها الصحيح من تاريخ الأدب الإسلامى.

ونماذج هذا الفن قصيدة أحمد شوقى الشهيرة بمطلعها الذى يقول فيه.

سلوا قلبى غداة سلا وتابا ... لعل على الجمال له عتابا

وفيها يقول:

تجلى مولد الهادى، وعمت ... بشائره البوادى والقصابا
وأسدت للبرية بنتُ وهب ... يداً بيضاء طوقت الرقابا
لقد وضعتْه وهاجاً منيراً ... كما تلد السماوات الشهابا
فقام على سماء البيت نوراً ... يضىء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثربُ الفيحاءُ مسكاً ... وفاح القاع أرجاء، وطابا

ثم يخاطب الرسول ﷺ قائلاً:

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى ... بمدحك بيد أن لى انتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيان ... إذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزدت قدراً ... وحين مدحتك اقتدت السحابا

وقد كانت مناسبة الاحتفال الثقافى بالمولد النبوى، فى بعض الأقطار العربية والإسلامية، فرصة لتجويد هذا الفن. ومن ذلك قصيدة ألقاها الشاعر محمود الماحى، الذى اختطفه الموت شاباً، يقول فيها:

الليل أرقه بطول عذابه ... صب صفاء الحب ملء إهابه
الدمع والتنهيد من أترابه ... والوهم والتسهيد من أصحابه
يفنى كما تفنى الشموع شبابه ... ويذوب حين يذوب فى أعصابه
أحبابه غابوا، وطال غيابهم ... هل من حديث طاب عن أحبابه
بعث الكتاب لهم لحون محبة ... أتراهم قرأوا سطور كتابه

ثم يخلص بعد ذلك للحديث عن مناسبة الذكرى النبوية، فيقول:

حتى إذا هلت عليه بشائر الذكـرى ... وردت فيــه بـعض صـوابــه
وازينـت للمولـد الأبـدى دنيـاه ... ودنيـا القلـب مـن أنسـابـه
غلـب الهوى بأس النوى وتبسمت ... شفتـاه لكـن ذاب فـى غـلابه

ثم يتحدث عن استجابته للمشاركة فى الاحتفال فيقول:

ولقـد دعيـت للاحتفـال بليلـة ... نسـى الـزمان بها رتيب حسابه
فمحـوت ظنـى باليقين، لعلنـى ... ألقـى وجـودى، بعد طول غيابه
ووقفـت فـى شبابتـى متـردداً ... والقلـب بيـن بقائـه وذهـابـه
مـاذا أقـول وموكب الذكرى سرى ... بين الـوجود يضـىء ظلم شعابه
بزغت كشمس، لا غروب لها، وهل ... يخبـو الضياء، وأنت نور شهابـه
مـاذا أقـول، وأين وحـى الخلـد ... جبريـل الأميـن، وأيـن سر إيابه
رفـت بنـات الشعـر قبلُ، وقدمت ... أيـن العـذارى؟ أيـن مـن آدابه!

ثم يقول بعد شكوى من الزمان، الذى راح يعجب بالمذاهب الوضعية، تاركاً وراء ظهره نور الهداية الإلهية:

يـا فجـر ميـلاد النبى ابـعث لنا ... خيطـاً يضـىء لـنـا طريـق ثوابه
وصـف الحيـاة مـع النبـى أبلـلت ... بمدامـع الأكـوان مـن غيابـه
صـف لـى زحام المسلمين ببابـه ... ومـلائك الـرحمات حـول قبابـه
أرأيـت بحـر الحـب فى غـزواتـه ... والناس كـالأمواج فـوق عبـابـه
وسمـو حكمتـه، ومنطقـه الـذى ... أضحت شعوب الأرض قيد رحابـه
ورضـاه يـوم الفتح عـدلاً قاضياً ... جبريـل روح اللـه مـن حجـابـه
أو لـم يكـن للكـون رائـده الذى ... يسقـى بـماء الحـب قفـر يبـابـه
أو لـم يكـن ظـل الهجيـر لروحه ... ومـرد فتـواه، وفصـل خطـابـه

وهكذا تصبح الذكرى مناسبة لاستعراض مآثر الرسول ﷺ، وما قدمه للإنسانية كلها من خير، وما قادها إليه من هداية.

وغالباً مانجد فى قصائد المديح النبوى، أو قصائد الذكرى النبوية، نبرة حزينة أسيانة على أحوال المسلمين فى العصر الحاضر، وأسفاً وتحسراً على ما حدث لهم من تفرق بعد وحدة، وضعف بعد قوة، ومهانة بعد استعلاء.

لقد وجد الشعراء المسلمون، فى كل من مدح الرسول ﷺ ، وتعاقب ذكرى مولده الكريم، فرصة سنوية مناسبة يجددون فيه التعبير عن آلامهم لما صارت إليه الأحوال، كما يجددون فيها آمالهم فى مستقبل أفضل للأمة الإسلامية.

وهكذا نرى أن أمثال تلك المناسبات يمكن أن تكون موضوعاً ثرياً، من موضوعات الأدب الإسلامى. وكما سبق القول، فإن لدينا دائماً المعيار الذى لايخطىء، وهو الحكم على مضمون هذه القصائد بالتوجه الإسلامى، من عدمه: ما وافق التوجه الإسلامى الصحيح قبلناه ومالم يوافقه أهملناه .. وما وصل إلى مستوى التجويد الفنى رحبنا به وشجعناه، وماقصّر عن ذلك مررنا عليه سريعاً، وعذرناه.



الأدب المقارن الإسلامى

يعتبر الأدب المقارن من أحدث مجالات الدراسة الأدبية التى ظهرت فى القرن العشرين، وهو يهدف إلى دراسة العلاقات بين أدبين أو أكثر، لأمتين أوأكثر، وبيان مدى ما تم من تأثير وتأثر بينهما، والكشف عن مواطن الجمال فى كل منهما. وهذا النوع من الدراسة يحتاج بالضرورة إلى إلمام الدارس بأكثر من لغة أجنبية، واطلاعه الواسع على أكبر عدد من النماذج الأدبية العالمية. وقد قيل إن من مزايا الأدب المقارن، أنه يعمل على تقريب الهوة بين الشعوب المختلفة، وعقد أواصر الصلح بينها عن طريق تتبع طرق التفاعل المستمر، والتبادل المتجدد.

ومن بديهيات الأدب المقارن أنه يصنف الآداب بحسب اللغة التى تكتب فيها. فهناك الأدب العربى، وهو كل ما كتب فى العربية، على أى أرض، ومهما كانت جنسية كاتبه السياسية. والشىء نفسه، يمكن أن يقال عن الأدب الفرنسى، أوالألمانى، أو الروسى، أو الإنجليزى، أو الفارسى، أو التركى ..

ولا تجرى المقارنة ـ بمفهومها العلمى — إلا بين أدبين ينتمى كل واحد منهما إلى لغة أخرى مختلفة. ومن هنا، فلا تصح المقارنة بين أديبين عربيين؛ لأنهما من أبناء لغة واحدة. وإذا تمت المقارنة فى هذه الحالة، فإنها تصبح "موازنة"، وهذا هو المصطلح النقدى القديم الذى أطلق عليها. فقد كتب الآمدى كتاباً بعنوان "الموازنة بين الطائيين: البحترى وأبى تمام".

ويرى دارسو الأدب أن مثل هذه الموازنة هامة، ولكنها محدودة القيمة، فهى لاتعدو أن تبين تأثر اللاحق بالسابق، أو تفوقه عليه، وغايتها جمالية تعليمية. أما الأدب المقارن، الذى تجرى فيه المقارنة بين أديبين ينتميان إلى أدبين مختلفين، فإنه يهدف إلى تأكيد الصلة بين الآداب المختلفة، وترتفع المقارنة هنا إلى مستوى عالمى، وتنزع إلى استخلاص مقاييس عامة، وليست ذات طابع محلى محدود.

إن دراسة الآداب المختلفة فى علاقاتها بعضها ببعض، تؤدى إلى نتائج: منها انتقال أجناس أدبية كاملة من أدب إلى آخر، كما حدث فى العصر الحديث، حين انتقلت المسرحية إلى الأدب العربى، فأثرته شكلاً ومضموناً. وكما انتقلت

القصة القصيرة والرواية، بمفهومها الحديث، إلى الأدب العربى، فوسعت من مجالات تعبيره وتصويره.

وقد بدأت دراسة الأدب المقارن فى العالم العربى، بفضل باحث جاد، هو المرحوم الدكتور "محمد غنيمى هلال" الذى كتب مؤلفاً قيماً عن الأدب المقارن: نشأته، واتجاهاته، وأهم مدارسه، ونماذج منه، كما نشر بعد ذلك كتاباً تطبيقياً، تناول فيه أثر الأدب العربى فى الأدب الفارسى، فى موضوع الحب العذرى الذى اشتهر فى قصة (ليلى والمجنون).

ومما لاشك فيه أن هذه الدراسات قد فتحت الباب واسعاً أمام الدارسين، العرب والمسلمين، لاقتحام هذا المجال، وإثبات شخصيتهم فيه.

والذى يهمنا فى هذا المجال هو بدء الدعوة إلى ضرورة الاتجاه إلى دراسة آداب الشعوب الإسلامية المختلفة فى اللغة، والتى توجد بينها علاقات متعددة، أهمها على الإطلاق رابطة العقيدة الإسلامية. وذلك بعد أن كثر الحديث عن دراسة العلاقة بين أوربا وبعض البلاد العربية، التى تأثرت بها فى المجال الأدبى. فكثيراً مانرى موضوعاً مثل تأثر "أحمد شوقى" بشكسبير فى موضوع "كليوباترا" يحتل فى الدراسات المقارنة مكاناً أثيراً لدى الباحثين، ومثل أثر "ت، أس، أليوت" فى "بدر شاكر السياب"، أو أثر "تشيكوف فى "محمود تيمور"

وقد أجريت فى المقابل بحوث متعمقة حول تأثير الأدب العربى، والإسلامى بعامة فى بعض الآداب الأوربية. ومن أشهر الأمثلة على ذلك تأثير أبى العلاء المعرى فى "دانتى" الإيطالى، وتأثير الشعراء الأندلسيين فى شعر التروبادور، الذى ظهر فى أوربا خلال العصور الوسطى.

ولكننا هنا نغير الدفة تماماً، وندعو إلى دراسات مقارنة جديدة بين الآداب الإسلامية ذات اللغات المختلفة، مثل العربية، والفارسية، والتركية، والأوردية، والبربرية، والسواحلية.

إن المتحدثين بهذه اللغات شعوب إسلامية، ولكنها مختلفة فيما بينها فى ثقافاتها المحلية، وفى آدابها الخاصة بها، واحتمال تبادل الأفكار والأساليب وارد بينها، بل إنه ضرورى بحكم الاتصال المستمر، والاتحاد فى العقيدة.

وسوف أضرب هنا مثالاً بسيطاً على ذلك. فموضوع الحكايات الفكاهية المرتبطة بشخصية (جحا) تتوزع بين تركيا، وبلاد فارس، والبلاد العربية، بل إنه ينتقل بنوادره إلى الساحل الشرقى من البحر الأبيض المتوسط، فيشيع فى صقلية، وإيطاليا.

وهكذا بدلاً من أن تتشتت جهود دارسى الأدب المقارن المحدثين فى دراسة موضوعات أدبية غربية (يظهر فيها السيادة غالباً للجانب الأوربى، والاستعارة غالباً من الجانب العربى)، يتم بحث الصلات المتوافرة بالفعل بين الآداب الإسلامية.

وهذا مما يسهم فى مزيد من تقارب هذه الشعوب: لأن البحث العلمى المشترك، الذى تدفع إليه دراسة الأدب المقارن، سوف يزيد، بالتأكيد من حسن الصلات، وتأكيد الأواصر.

وبهذا العمل، سوف ينشأ لدينا فرع جديد تماماً، يمكن أن نطلق عليه "الأدب المقارن الإسلامى"، وهو يستحق هذا اللقب بكل جدارة. فالموضوعات المشتركة أوالمتشابهة موجودة، والصلات بين الآداب الإسلامية قائمة، وبحث قنوات التأثير والتأثر، لاتنتهى إلى الحط من شأن الآخذ، ولاتدفع المعطى إلى الاستعلاء. ثم إن الباحثين القادرين على القيام بهذا العمل غير غائبين، وينبغى فقط أن يحصلوا على بعض التشجيع، والمكافأة [١] .

إن المسيرة الطويلة، تبدأ دائماً بخطوات بطيئة، ولكنها واثقة من هدفها، وواثقة من الطريق الذى تسلكه. وقد انطلقت مسيرة الأدب الإسلامى، وما أحسبها تتوقف، لذلك فإنها تحتاج إلى الأمل الذى يحدوها لبلوغ الهدف، والعزيمة التى تيسر لها عقبات الطريق.

۞۞۞

---

(١) للأستاذ الدكتور الطاهر مكى كتاب ضخم بعنوان "الأدب المقارن الإسلامى".

القسم الثانى

النماذج

(أ) من الشعر

(ب) من النثر

تقديـــم النمـــاذج

حاولت ان أضع بين يدى القراء فى هذا الجزء من الكتاب مجموعة من نماذج الأدب الإسلامى شعراً ونثراً. والمدار هنا يرجع بالطبع إلى الذوق الخاص، لكننى راعيت مع ذلك عدة عوامل، منها: التوجه الإسلامى، والجودة الفنية، والتمثيل النوعى لجنس أدبى أو لفرع منه يكون قابلاً للصوغ على أساسه، ومحاكاة البارع منه.

ومن النظرة السريعة إلى مجموعة النماذج، يتبين أنها لم تقم على أساس الزمان أو المكان، وإنما جاءت نتيجة رسوخها فى الذاكرة زمنا طويلاً، وإلحاحها على الذهن باستمرار.

لذلك تظل عملية اختيار النماذج مطروحة على الباحثين فى الأدب الإسلامى، والحريصين على انتشاره، يقوم كل منهم بدوره فيها، متجاوزا اللاحق ما وصل إليه السابق، وهكذا يمكن أن تتوالى المختارات، مكونة بناء متراكما ومتناميا فى نفس الوقت، بحيث يكون مرجعاً أساسيا لكل من الدارسين والمبدعين.

(أ) من الشعر

متى تخل بالسلطان

الطغرائي
(ت ٥١٣ هـ)

إذا كنت للسلطان خدنا فلا تشر — عليه بأن يؤذى مدى الدهر مسلما
فقد جاء فى أمثالهم أن ثعلبا — وذئباً، أصابا عند ليث تقدما
أضر به جوع شديد فشفّه — وأبقى له جلدا رقيقا وأعظما
ففاز لديه الذئب يوما بخلوة — فقال كفاك الثعلب اليوم مطعما
فكله وأطعمه فما هو شكلنا — ولست أرى فى أكله لك مأثما
فلما أحس الثعلبان بكيده — تطبب عند الليث واحتال مقدما
وقال أرى بالملك داء مماطلا — تهدم منه جسمه وتحطما
وفى كبد الذئب الشفاء لدائه — فإن نال منها ينج منه مسلما
فصادف منه ذا قبولاً فعنده — أحال على الذئب الخبيث فصمما
فأفلت مسلوخ الإهاب مرملا — فلما رآه الثعلبان تبسما
وصاح به: يالابس الثوب قانيا — متى تخل بالسلطان فاسكت لتسلما

۞۞۞

قلبى يحدثنى ..

ابن الفارض

(ت ٦٣٢ هـ)

قلبى يحدثنى بأنك متلفى ... روحى فداك عرفت أم لم تعرف
لم أقض حق هواك إن كنت الذى ... لم أقض فيه أسى ومثلى من يفى
مالى سوى روحى وباذل نفسه ... فى حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى ... يا خيبة المسعى إذا لم تسعف
يا مانعى طيب المنام ومانحى ... ثوب السقام به ووجدى المتلف
عطفاً على رمقى وما أبقيت لى ... من جسمى المضنى وقلبى المدنف
فالوجد باق والوصال مماطلى ... والصبر فان واللقاء مسوفى
لم أخل من حسد عليك فلا تضع ... سهرى بتشنيع الخيال المرجف
واسأل نجوم الليل هل زار الكرى ... جفنى وكيف يزور من لم يعرف
لاغرو إن شحت بغمض جفونها ... عينى وسحت بالدموع الذرف
وبما جرى فى موقف التوديع من ... ألم النوى شاهدت هول الموقف
إن لم يكن وصل لديك فعد به ... أملى وماطل إن وعدت ولاتفى
فالمطل منك لدى إن عز الوفا ... يحلو كوصل من حبيب مسعف
أهفو لأنفاس النسيم تعلة ... ولوجه من نقلت شذاه تشوفى
فلعل نار جوانحى بهبوبها ... أن تنطفى وأود أن لا تنطفى

❁❁❁

يا أهل ودى أنتم أملى ومن ... ناداكم يا أهل ودى قد كفى
عودوا لما كنتم عليه من الوفا ... كرماً فإنى ذلك الخل الوفى
وحياتكم وحياتكم قسماً وفى ... عمرى بغير حياتكم لم أحلف
لو أن روحى فى يدى ووهبتها ... لمبشرى بقدومكم لم أنصف
لا تحسبونى فى الهوى متصنعا ... كلفى بكم خلق بغير تكلف

أخفيت حبكم فأخفاني أسى | حتى لعمري كدت عني أختفي
وكتمته عني فلو أبديته | لوجدته أخفى من اللطف الخفي

۞۞۞

ولقد أقول لمن تحرش بالهوى | عرضت نفسك للبلا فاستهدف
أنت القتيل بأى من أحببته | فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى
قل للعذول أطلت لومى طامعاً | ان الملام عن الهوى مستوقفى
دع عنك تعنيفى وذق طعم الهوى | فإذا عشقت فبعد ذلك عنف
برح الخفاء بحب من لو فى الدجى | سفر اللثام لقلت يابدر اختف
وإن اكتفى غيرى بطيف خياله | فأنا الذى بوصاله لا أكتفى
وقفاً عليه محبتى ولمحنتى | بأقل من تلفى به لا أشتفى
وهواه وهو أليتى وكفى به | قسماً أكاد أجله كالمصحف
لو قال تيهاً قف على جمر الغضا | لوقفت ممتثلاً ولم أتوقف
أو كان من يرضى بخدى موطئاً | لوضعته أرضاً ولم أستنكف

۞۞۞

لا تنكروا شغفى بما يرضى وإن | هو بالوصال على لم يتعطف
غلب الهوى فأطعت أمر صبابتى | من حيث فيه عصيت نهى معنفى
منى له ذل الخضوع ومنه لى | عز المنوع وقوة المستضعف
ألف الصدود ولى فؤاد لم يزل | مذكنت غير وداده لم يألف
ياما أميلح كل ما يرضى به | ورضابه ياما أحيلاه بفى
لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحة | فى وجهه نسى الجمال اليوسفى
أو لو رآه عائداً أيوب فى | سنة الكرى قدماً من البلوى شفى
كل البدور إذا تجلى مقبلاً | تصبو إليه وكل قد أهيف
إن قلت عندى فيك كل صبابة | قال الملاحة لى وكل الحسن فى

۞۞۞

كملـت محاسـنه فلـو أهـدى السـنا   للبـدر عنـد تمامـه لـم يخسـف
وعلـى تفنـن واصفيـه بحسـنه   يفنـى الزمـان وفيـه مـالم يوصـف
ولقـد صرفـت احلـه كلـى علـى   يدحسـنه فحمـدت حسـن تصرفـى
فـالعين تهوى صـورة الحسـن التـى   روحـى بهـا تصبـو إلـى معنـى خفـى
اسـعد أخـى وغننـى بحديثـه   وانـثر علـى سـمعى حـلاه وشـنف
لأرى بعيـن السـمع شـاهد حسـنه   مغنـى فـأتحفنى بـذاك وشـرف
يـا أخـت سـعد مـن حبيبـى جئتنـى   برسـالة أديتهـا بتلطـف
فسـمعت مـالم تسـمعى ونظـرت مـا   لـم تنظـرى وعرفـت مـالم تعرفـى
إن زار يومـاً يـا حشـاى تقطعـى   كلفـاً بـه أو سـار يـاعين اذرفـى
مـاللنوى ذنـب ومـن أهـوى معـى   إن غاب عن إنسـان عينـى فهـو فـى



قصيدة البردة

البوصيرى
(ت ٦٤٣ هـ)

أمــن تذكــر جــيران بــذى ســلم ... مزجت دمعًا جرى من مقلــة بــدم
أم هبـت الريــح مــن تلقــاء كاظمــة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضـم
فمـا لعينيـك إن قلـت اكففــا همتــا ... ومـا لقلبـك إن قلــت اسـتفق يهــم
أيحسـب الصـب أن الحـب منكتـم ... مــابين منســجم منـــه ومضطـــرم
لولا الهوى لم ترق دمعـا علـى طلـل ... ولا أرقـت لذكــر البـــان والعلــم
فكيف تنكـر حبـا بعـد مـا شـهدت ... بـه عليـك عــدول الدمــع والسـقم
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنـــى ... مثـل البهـار علــى خديــك والعنــم
نعم سرى طيف من أهوى فأرقنـــى ... والحب يعتــرض اللــذات بـالألــم

۞۞۞

يالائمى فى الهوى العذرى معذرة ... منــى إليـك ولـو أنصفـت لـم تلـم
عدتــك حــالى لاســرى بمســتتر ... عــن الوشــاة ولا دائــى بمنحســم
محضتنى النصـح لكن لست أسمعه ... إن المحـب عن العــذال فــى صمـم
إنـــى اتهمت نصيح الشيب فى عذل ... والشيب أبعـد فـى نصـح عن التهم
فـإن أمّـاراتى بالسـوء مـا اتعظـت ... مـن جهلهـا بنذيـر الشـيب والهـرم
ولا أعدت مـن الفعل الجميل قـرى ... ضيـف ألـم برأسـى غـير محتشـم
لــو كنــت أعلـم أنـــى مــا أوقـــره ... كتمـت سـراً بـدا لـى منـه بـالكتم
من لـى بـرد جمـاح مـن غوايتهـا ... كمـا يـــرد جمـــاح الخيـــل بـــاللجم
فلا ترم بالمعـاصى كسـر شـهوتها ... إن الطعـام يقــوى شـــهوة النهـــم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حـب الرضــاع وإن تفطمـه ينفطـم
فـاصرف هواهـا وحـاذر أن توليـه ... إن الهـوى مـا تولـى يصـم أو يصـم
وراعهـا وهـى فـى الأعمـال سـائمة ... وإن هى اسـتحلت المرعـى فلا تسـم
كـم حسـنت لـذة للمـــرء قاتلـــة ... من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلات ... من المحارم والزم حمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
أستغفر الله من قول بلا عمل ... لقد نسبت به نسلاً لذى عقم
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به ... وما استقمت فما قولى لك استقم
ولاتزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم

۞۞۞

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

۞۞۞

محمد سيد الكونين والثقلين ... والفريقين من عرب ومن عجم
نبينا الآمر الناهى فلا أحد ... أبر فى قول لا منه ولا نعم
هو الحبيب الذى ترجى شفاعته ... لكل هول من الأهوال مقتحم
دعا إلى الله فالمستمسكون به ... مستمسكون بحبل غير منفصم
فاق النبيين فى خلق وفى خلق ... ولم يدانوه فى علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفا من البحر أو رشفاً من الديم
وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
فهو الذى تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم
منزه عن شريك فى محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ماشئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرف عنه ناطق بفم
لو ناسبت قدره آياته عظماً ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم
لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى ... فى القرب والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آى أتى الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس فى الظلم
أكرم بخلق نبى زانه خلق ... بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر فى ترف والبدر فى شرف ... والبحر فى كرم والدهر فى همم
كأنه وهو فرد من جلالته ... فى عسكر حين تلقاه وفى حشم
كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف ... من معدنى منطق منه ومبتسم
لاطيب يعدل ترباً ضم أعظمه ... طوبى لمنتشق منه وملتثم

۞۞۞

أبان مولده عن طيب عنصره ... يا طيب مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم ... قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع ... كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف ... عليه والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ... ورد واردها بالغيظ حين ظمى
كأن بالنار ما بالماء من بلل ... حزناً وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة ... والحق يظهر من معنى ومن كلم
عموا وصموا فإعلان البشائر لم ... تسمع وبارقة الإنذار لم تشم

من بعد ما أخبر الأقوام كاهنهم — بأن دينهم المعوج لم يقم
وبعد ما عاينوا فى الأفق من شهب — منقضة وفق مافى الأرض من صنم
حتى غدا عن طريق الوحى منهزم — من الشياطين يقفو إثر منهزم
كأنهم هرباً أبطال أبرهة — أو عسكر بالحصى من راحتيه رمى
نبذاً به بعد تسبيح ببطنهما — نبذ المسبح من أحشاء ملتقم
جاءت لدعوته الأشجار ساجدة — تمشى إليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطرا لما كتبت — فروعها من بديع الخط بالقلم
مثل الغمامة أنى سار سائرة — تقيه حر وطيس للهجير حمى

✪✪✪

أقسمت بالقمر المنشق إن له — من قلبه نسبة مبرورة القسم
وما حوى الغار من خير ومن كرم — وكل طرف من الكفار عنه عمى
فالصدق فى الغار والصديق لم يرما — وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على — خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقايه الله أغنت عن مضاعفة — من الدروع وعن عال من الأطم
ما سامنى الدهر ضيما واستجرت به — إلا ونلت جواراً منه لم يضم
ولا التمست غنى الدارين من يده — إلا استلمت الندى من خير مستلم
لا تنكر الوحى من رؤياه إن له — قلباً إذا نامت العينان لم ينم
وذاك حين بلوغ من نبوته — فليس ينكر فيه حال محتلم
تبارك الله ما وحى بمكتسب — ولا نبى على غيب بمتهم
كم أبرأت وصباً باللمس راحته — وأطلقت أرباً من ربقة اللمم
وأحيت السنة الشهباء دعوته — حتى حكت غرة فى الأعصر الدهم
بعارض جاد أو خلت البطاح بها — سيب من اليم أو سيل من العرم

✪✪✪

دعنى ووصفى آيات له ظهرت — ظهور نار القرى ليلاً على علم
فالدر يزداد حسناً وهو منتظم — وليس ينقص قدراً غير منتظم

فمـــا تطـــاول آمـــال المديـــح إلـــى ما فيـه مـن كـرم الأخـلاق والشـيم
آيـات حـق مـن الرحمـــن محدثـــة قديمـــة صفـــة الموصـــوف بـــالقدم
لـم تقـترن بزمـان وهـــى تخبرنـــا عـن المعـاد وعـن عـاد وعـن إرم
دامـت لدينـا ففـاقت كـل معجـزة مـن النبييـن إذ جـاءت ولـم تـدم
محكمـــات فمـــا تبقيـــن مـــن شـــبه لذى شقاق وما ومـا تبغين مـن حكم
مـا حوربت قط إلا عـاد من حـرب أعدى الأعـادى إليهـا ملقـى السـلم
ردت بلاغتهـــا دعـــوى معارضهـــا رد الغيور يـد الجـانى عـن الحـرم
لهـا معان كمـوج البحـر فـى مـدد وفـوق جوهـره فـى الحسـن والقيـم
فمـــا تعـد ولا تحصـــى عجائبهـــا ولا تسـام علـــى الإكثـــار بالســأم
قـرت بهـا عيـن قاريهـا فقلـت لـه لقـد ظفـرت بحبـل اللـه فـاعتصم
إن تتلهـا خيفـة مـن حـر نـار لظـى أطفأت حـر لظـى مـن وردهـا الشبم
كأنهـا الحـوض تبيـض الوجـوه بـه مـن العصـاة وقـد جـاءوه كـالحمم
وكـــالصراط وكـــالميزان معدلـــة فالقسط من غيرها فى النـاس لـم يقم
لا تعجبَـنْ لحســـود راح ينكرهـــا تجـاهلاً وهـو عيـن الحـاذق الفهـم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفـم طعـم الماء مـن سقـم

✡✡✡

يـا خير مـن يمـم العـافون سـاحته سـعيا وفـوق متـون الأنيـق الرسـم
ومـن هـو الآيـة الكـبرى لمعتـبر ومـن هـو النعمـة العظمـى لمغتنـم
سـريت مـن حـرم ليـلاً إلـى حـرم كما سرى البدر فـى داج من الظلم
وبـت ترقـى إلـى أن نلـت منزلـة من قاب قوسين لـم تـدرك ولـم تـرم
وقدمتـك جميـع الأنبيــاء بهـا والرسـل تقديـم مخـدوم علـى خـدم
وأنـت تخـترق السـبع الطبـاق بهـم فـى موكـب كنـت فيـه صـاحب العلـم
حتـى إذا لـم تـدع شـأوا لمسـتبق مـن الدنـو ولا مرقـى لمسـتنم
خفضـت كـل مقـام بالإضافـة إذ نوديـت بـالرفع مثـل المفـرد العلـم

كيمـا تفـوز بوصـل أى مسـتتر ... عـن العيـون وسـر أى مكتتـم
فحـزت كـل فخـار غـير مشـترك ... وجـزت كـل مقـام غـير مزدحـم
وجل مقدار مـا وليـت مـن رتـب ... وعـز إدراك مـا أوليـت مـن نعـم
بشـرى لنـا معشـر الإسـلام إن لنـا ... مـن العنايـة ركنـا غـير منهـدم
لما دعـا اللـه داعينـا لطاعتـه ... بـأكرم الـرسل كنـا أكـرم الأمـم

۞۞۞

راعـت قلـوب العـدا أنبـاء بعثتـه ... كنبـأة أجفلـت غفـلا مـن الغنـم
مـازال يلقـاهم فـى كـل معـترك ... حتى حكوا بالقنا لحمـا على وضـم
ودوا الفـرار فكـادوا يغبطـون بـه ... أشـلاء شـالت مـع العقبـان والرخـم
تمضـى الليـالى ولا يـدرون عدتهـا ... مـالم تكـن مـن ليـالى الأشـهر الحـرم
كأنمـا الديـن ضيـف حـل سـاحتهم ... بكـل قـرم إلـى لحـم العـدا قـرم
يجـر بحـر خميـس فـوق سـابحة ... يرمـى بمـوج مـن الأبطـال ملتطـم
مـن كـل منتـدب للـه محتسـب ... يسـطو بمسـتأصل للكفـر مصطلـم
حتـى غدت ملـة الإسلام وهـى بهـم ... من بعد غربتهـا موصولـة الرحـم
مكفولـة أبـداً منهـم بخـير أب ... وخـير بعـل فلـم تيتـم ولـم تئـم
هـم الجبـال فسـل عنهـم مصـادمهم ... مـاذا رأى منهـم فـى كـل مصطـدم
وسـل حنينـا وسـل بـدراً وسـل أحـداً ... فصول حتـف لهـم أدهـى من الوخـم
المصدرى البيض حمرا بعد ماوردت ... مـن العـدا كـل مسـود مـن اللمـم
والكـاتبين بسـمر الخـط مـا تركـت ... أقلامهـم حـرف جسـم غـير منعجـم
شـاكى السـلاح لهـم سـيما تمـيزهم ... والـورد يمتـاز بالسـيما عـن السـلم
تهدى إليـك ريـاح النصـر نشـرهم ... فتحسب الزهر فى الأكمام كـل كمـى
كـأنهم فـى ظهـور الخيـل نبـت ربـاً ... مـن شـدة الحـزم لا من شـدة الحـزم
طـارت قلوب العدا من بأسهم فرقـاً ... فمـا تفـرق بيـن البهـم والبهـم
ومـن تكـن برسـول اللـه نصرتـه ... إن تلقـه الأسـد فـى آجامهـا تجـم

ولـن تـرى مـن ولـى غــير منتصــر / بــه ولا مــن عـــدو غــير منقصـــم
أحـــل أمتـــه فـــى حـــرز ملتـــه / كـالليث حـل مـع الأشـبال فـى أجـم
كـم جدلـت كلمـــات اللـــه مــن جــدل / فيـه وكـم خصـم البرهـان مـن خصـم
كفـــاك بالعلــم فـــى الأمـــى معجزة / فـــى الجاهليـــة والتأديب فـــى اليتـم

۞۞۞

خدمتـــه بمديـــح أســـتقيل بـــــه / ذنوب عمر مضى فى الشعر والخـدم
إذ قلدانـــى مـــا تخشـــى عواقبـــه / كـأننى بهمـــا هــدى مـــن النعـــم
أطعت غى الصبا فى الحالتين وما / حصلـت إلا علــى الآثـام والنـــدم
فياخســارة نفـــس فـــى تجارتهـــا / لـم تشـتر الديـن بالدنيـا ولـم تسـم
ومـــن يبـــع آجـــلا منـــه بعاجلـــه / يبـن لـه الغبـن فـى بيـع وفـى سـلم
إن آت ذنبـا فمـا عهـدى بمنتقــض / مــن النبــى ولا حبلــى بمنصـــرم
فـــإن لـــى ذمـــة منـــه بتســـميتى / محمـداً وهـو أوفـى الخلـق بـالذمم
إن لـم يكـن فـى معـادى آخـذا بيـدى / فضــلاً وإلا فقـــل يازلـــة القـــدم
حاشـاه أن يحـرم الراجـى مكارمـه / أو يرجـع الجـار منـه غـير محـترم
ومنـــذ ألزمـــت أفكـــارى مدائحــــه / وجدتــه لخلاصـــى خـــير ملـــتزم
ولـن يفـوت الغنـى منـه يـدا تربـت / إن الحيـا ينبـت الأزهـار فـى الأكـم
ولم أرد زهـــــرة الدنيا التى اقتطفت / يـــدا زهيـــر بما أثنى علـــى هـرم

۞۞۞

يـا أكـرم الخلـق مـالى من ألـوذ بـه / سـواك عنـد حلـول الحـادث العمـم
ولـن يضيـق رسـول اللـه جـاهك بـى / إذا الكريـم تجلـــى باســم منتقـــم
فـــإن مـــن جـودك الدنيـا وضرتهـــا / ومـــن علومـك علـم اللـوح والقلـــم
يـانفس لاتقنطـى مـــن زلـة عظمـت / إن الكبـــائر فـــى الغفـــران كـــاللمم
لعـل رحمـــة ربـــى حيـــن يقســـمها / تأتى على حسب العصيان فـى القسـم
يارب واجعـل رجـائى غير منعكس / لديك واجعل حسابى غير منحـزم

والطف بعبدك في الدارين إن له ... صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم
وأذن لسحب صلاة منك دائمة ... على النبي بمنهل ومنسجم
مارنحت عذبات البان ريح صباً ... وأطرب العيس حادى العيس بالنغم
ثم الرضا عن أبى بكر وعن عمر ... وعن على وعن عثمان ذى الكرم
والآل والصحب ثم التابعين فهم ... أهل التقى والنقا والحلم والكرم

۞۞۞

يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا ... واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
واغفر إلهى لكل المسلمين بما ... يتلوه فى المسجد الأقصى وفى الحرم
بجاه من بيته فى طيبة حرم ... واسمه قسم من أعظم القسم

۞۞۞

وهذه بردة المختار قد ختمت ... والحمد لله فى بدء وفى ختم
أبياتها قد أتت ستين مع مائة ... فرج بها كربنا يا واسع الكرم

۞۞۞

نهج البردة

أحمد شوقى

ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
رمى القضاء بعينى جؤذر أسداً   يا ساكن القاع، أدرك ساكن الأجم
لما رنا حدثتنى النفس قائلة   يا ويح جنبك، بالسهم المصيب رمى
جحدتها، وكتمت السهم فى كبدى   جرح الأحبة عندى غير ذى ألم
رزقت أسمح ما فى الناس من خلق   إذا رزقت التماس العذر فى الشيم
يالائمى فى هواه ـ والهوى قدر ـ   لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أنلتك أذناً غير واعية   ورب منتصت والقلب فى صمم
يا ناعس الطرف؛ لاذقت الهوى أبداً   أسهرت مضناك فى حفظ الهوى، فنم
أفديك إلفاً، ولا آلو الخيال فدى   أغراك بالبخل من أغراه بالكرم
سرى، فصادف جرحاً دامياً، فأسا   ورب فضل على العشاق للحلم
من الموائس باناً بالربى وقنا   اللاعبات بروحى، السافحات دمى؟
السافرات كأمثال البدور ضحى   يغرن شمس الضحى بالحلى والعصم
القاتلات بأجفان بها سقم   وللمنية أسباب من السقم
العاثرات بألباب الرجال، وما   أقلن من عثرات الدل فى الرسم
المضرمات خدوداً، أسفرت، وجلت   عن فتنة، تسلم الأكباد للضرم
الحاملات لواء الحسن مختلفاً   أشكاله، وهو فرد غير منقسم
من كل بيضاء أو سمراء زينتا   للعين، والحسن فى الآرام كالعصم
برعن للبصر السامى، ومن عجب   إذا أشرن أسرن الليث بالعنم
وضعت خدى، وقسمت الفؤاد ربى   يرتعن فى كنس منه وفى أكم
يا بنت ذى اللبد المحمى جانبه   ألقاك فى الغاب، أم ألقاك فى الأطم؟
ما كنت أعلم حتى عن مسكنه   أن المنى والمنايا مضرب الخيم
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر؟   وأخرج الريم من ضرغامة قرم؟
بينى وبينك من سمر القنا حجب   ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك إلا فى غضون كرى   مغناك أبعد للمشتاق من إرم

✿✿✿

يا نفس، دنياك تخفي كل مبكية
وإن بدا لك منها حسن مبتسم

فضي بتقواك فاهاً كلما ضحكت
كما يفض أذى الرقشاء بالثرم

مخطوبة - منذ كان الناس - خاطبة
من أول الدهر لم ترمل ولم تئم

يفنى الزمان، ويبقى من إساءتها
جرح بآدم يبكي منه في الأدم

لا تحفلي بجناها، أو جنايتها
الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

كم نائم لا يراها، وهي ساهرة
لولا الأماني والأحلام لم ينم

طوراً تمدك في نعمى وعافية
وتارة في قرار البؤس والوصم

كم ضللتك، ومن تحجب بصيرته
إن يلق صابا يرد، أو علقما يسم

يا ويلتاه لنفسي! راعها ودها
مسودة الصحف في مبيضة اللمم

ركضتها في مريع المعصيات، وما
أخذت من حمية الطاعات للتخم

هامت على أثر اللذات تطلبها
والنفس إن يدعها داعي الصبا تهم

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه
فقوم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها في خير عافية
والنفس من شرها في مرتع وخم

تطغى إذا مكنت من لذة وهوى
طغي الجياد إذا عضت على الشكم

❁❁❁

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل
في الله يجعلني في خير معتصم

ألقي رجائي إذا عز المجير على
مفرج الكرب في الدارين والغمم

إذا خفضت جناح الذل أسأله
عز الشفاعة، لم أسأل سوى أمم

وإن تقدم ذو تقوى بصالحة
قدمت بين يديه عبرة الندم

لزمت باب أمير الأنبياء، ومن
يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

فكل فضل، وإحسان، وعارفة
ما بين مستلم منه وملتزم

علقت من مدحه حبلاً أعز به
في يوم لا عز بالأنساب واللحم

يزري قريض زهيرا حين أمدحه
ولا يقاس إلى جودي ندى هرم

❁❁❁

محمد صفوة البارى، ورحمته ... وبغية الله من خلق ومن نسم
وصاحب الحوض يوم الرسل سائله ... متى الورود؟ وجبريل الأمين ظمى
سناؤه وسناه الشمس طالعة ... فالجرم فى فلك، والضوء فى علم
قد أخطأ النجم ما نالت أبوته ... من سؤود باذخ فى مظهر سنم
نموا إليه، فزادوا فى الورى شرفاً ... ورب أصل لفرع فى الفخار نمى
حواه فى سبحات الطهر قبلهم ... نوران قاما مقام الصلب والرحم
لما رآه بحيرا قال: نعرفه ... بما حفظنا من الأسماء والسيم
سائل حراء، وروح القدس: هل علما ... مصون سر عن الإدراك منكتم؟
كم جيئة وذهاب شرفت بهما ... بطحاء مكة فى الإصباح والغسم
ووحشة لابن عبدالله بينهما ... أشهى من الأنس بالأحباب والحشم
يسامر الوحى فيها قبل مهبطه ... ومن يبشر بسيمى الخير يتسم
لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ ... فاضت يداه من التسنيم بالسنم
وظللته، فصارت تستظل به ... غمامة جذبتها خيرة الديم
محبة لرسول الله أشربها ... قعائد الدير، والرهبان فى القمم
إن الشمائل إن رقت يكاد بها ... يغرى الجماد، ويغرى كل ذى نسم
ونودى: اقرأ، تعالى الله قائلها ... لم تتصل قبل من قيلت له بفم
هناك أذن للرحمن، فامتلأت ... أسماع مكة من قدسية النغم
فلا تسل عن قريش كيف حيرتها؟ ... وكيف نفرتها فى السهل والعلم؟
تساءلوا عن عظيم قد ألم بهم ... رمى المشايخ والولدان باللمم
يا جاهلين على الهادى ودعوته ... هل تجهلون مكان الصادق العلم؟
لقبتموه أمين القوم فى صغر ... وما الأمين على قول بمتهم
فاق البدور، وفاق الأنبياء، فكم ... بالخلق والخلق من حسن ومن عظم
جاء النبيون بالآيات، فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد ... يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد فى لفظة منه مشرفة ... يوصيك بالحق، والتقوى، وبالرحم

يـا أفصـح النـاطقين الضـاد قاطبـة حديثـك الشـهد عنـد الذائـق الفهـم
حليت مـن عطـل جيـد البيـان بـه فـى كل منتثر، فـى حسـن منتظـم
بكـل قـول كريـم أنـت قائلـه تحيى القلـوب، وتحيـى ميت الهمم

۞۞۞

ســرت بشــائر بالهــادى ومولــده فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم
تخطفت مهـج الطـاغين مـن عـرب وطـيرت أنفس البـاغين مـن عجـم
ريعت لها شرف الإيوان، فانصدعت من صدمة الحق، لا من صدمة القدم
أتيت والنـاس فوضـى لا تمـر بهـم إلا على صنـم قـد هـام فـى صنـم
والأرض مملـوءة جـوراً مسـخرة لكـل طاغيـة فـى الخلـق محتكـم
مسيطر الفـرس يبغـى فـى رعيتـه وقيصر الروم من كبر أصـم عمـى
يعذبـان عبـاد اللــه فـى شـبه ويذبحـان كمـا ضحيـت بـالغنم
والخلـق يفتـك أقـواهـم بـأضعفهم كـالليث بالبهم، أو كالحـوت بالبلم

۞۞۞

أسـرى بـك اللـه ليـلاً، إذ ملائكـه والرسل فـى المسجد الأقصـى علـى قـدم
لمـا خطـرت بـه التفـوا بسـيدهم كالشـهب بـالبدر، أو كـالجند بـالعلم
صلـى وراءك منهم كـل ذى خطـر ومـن يفـز بحبيـب اللـه يـأتـم
جبت السموات أو مـا فوقهـن بهـم علـى منـورة دريـة اللجـم
ركوبـة لـك مـن عـز ومـن شـرف لا فى الجياد، ولا فـى الأينـق الرسـم
مشـيئة الخـالق البـارى، وصنعتـه وقـدرة اللـه فـوق الشـك والتهـم
حتـى بلغـت سـماء لا يطـار لهـا على جنـاح، ولا يسـعى علـى قـدم
وقيـل: كـل نبـى عنـد رتبتـه ويـا محمـد، هـذا العـرش فاسـتلم
خططـت للديـن والدنيـا علومهمـا يا قـارئ اللـوح، بل يـا لامـس القلم
أحطـت بينهمـا بالسـر، وانكشـفت لـك الخزائن مـن علـم، ومـن حكـم
وضـاعـف القـرب ما قلدت من منن بـلا عـداد، ومـا طوقت من نعم

۞۞۞

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة ... لولا مطاردة المختار لم تسم
هل أبصروا الأثر الوضاء، أم سمعوا ... همس التسابيح والقرآن من أمم؟
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم ... كالغاب، والحائمات الزغب كالرخم؟
فأدبروا، ووجوه الأرض تلعنهم ... كباطل من جلال الحق منهزم
لولا يد الله بالجارين ما سلما ... وعينه حول ركن الدين لم يقم
تواريا بجناح الله، واستترا ... ومن يضم جناح الله لا يضم

۞۞۞

يا أحمد الخير، لى جاه بتسميتى ... وكيف لا يتسامى بالرسول سمى؟
المادحون وأرباب الهوى تبع ... لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يشهد أنى لا أعارضه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم؟
وإنما أنا بعض الغابطين، ومن ... يغبط وليك لا يذمم، ولا يلم
هذا مقام من الرحمن مقتبس ... ترمى مهابته سحبان بالبكم
البدر دونك فى حسن وفى شرف ... والبحر دونك فى خير وفى كرم
شم الجبال إذا طاولتها انخفضت ... والأنجم الزهر ما واسمتها تسم
والليث دونك بأسا عند وثبته ... إذا مشيت إلى شاكى السلاح كمى
تهفو إليك — وإن أدميت حبتها ... فى الحرب — أفئدة الأبطال والبهم
محبة الله ألقاها، وهيبته ... على ابن آمنة فى كل مصطدم
كأن وجهك تحت النقع بدر دجى ... يضئ ملتثما، أو غير ملتثم
بدر تطلع فى بدر، فغرته ... كغرة النصر، تجلو داجى الظلم
ذكرت باليتم فى القرآن تكرمة ... وقيمة اللؤلؤ المكنون فى اليتم
الله قسم بين الناس رزقهم ... وأنت خيرت فى الأرزاق والقسم
إن قلت فى الأمر: "لا" أو قلت فيه "نعم" ... فخيرة الله فى "لا" منك أو "نعم"
أخوك عيسى دعا ميتا، فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من الرمم
والجهل موت، فإن أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل، أو فابعث من الرجم

۞۞۞

قالوا: غزوت، ورسل الله ما بعثوا   لقتل نفس، ولاجاءوا لسفك دم
جهل، وتضليل أحلام، وسفسطة   فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذى حسب   تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به   ذرعاً، وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء: كم شربت   بالصاب من شهوات الظالم الغلم
طريدة الشرك، يؤذيها، ويوسعها   فى كل حين قتالاً ساطع الحدم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها   بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم
لولا مكان لعيسى عند مرسله   وحرمة وجبت للروح فى القدم
لسمر البلدان الطهر الشريف على   لوحين، لم يخش مؤذيه، ولم يجم
جل المسيح: وذاق الصلب شانئه   إن العقاب بقدر الذنب والجرم
أخو النبى، وروح الله فى نزل   فوق السماء ودون العرش محترم
علمتهم كل شئ يجهلون به   حتى القتال وما فيه من الذمم
دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم   والحزم أس نظام الكون والأمم
لولاه لم نر للدولات فى زمن   ما طال من عمد أو قر من دعم
تلك الشواهد تترى كل آونة   فى الأعصر الغر، لا فى الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروش، واعتلت سرر   لولا القذائف لم تثلم، ولم تصم
أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة   ولم نعد سوى حالات منقصم
مهما دعيت إلى الهيجاء قمت لها   ترمى بأسد، ويرمى الله بالرجم
على لوائك منهم كل منتقم   لله، مستقتل فى الله، معتزم
مسبح للقاء الله، مضطرم   شوقاً، على سابح كالبرق مضطرم
لو صادف الدهر يبغى نقلة، فرمى   بعزمه فى رحال الدهر لم يرم
بيض، مفاليل من فعل الحروب بهم   من أسيف الله، لا الهندية الخذم
كم فى التراب إذا فتشت عن رجل   من مات بالعهد، أو من مات بالقسم
لولا مواهب فى بعض الأنام لما   تفاوت الناس فى الأقدار والقيم
شريعة لك فجرت العقول بها   عن زاخر بصنوف العلم ملتطم
يلوح حول سنا التوحيد جوهرها   كالحلى للسيف أو كالوشى للعلم

غراء، حامت عليها أنفس، ونهى ... ومن يجد سلسلاً من حكمة يحم
نور السبيل يساس العالمون بها ... تكفلت بشباب الدهر والهرم
يجرى الزمان وأحكام الزمان على ... حكم لها، نافذ فى الخلق، مرتسم
لما اعتلت دولة الإسلام واتسعت ... مشت ممالكه فى نورها التمم
وعلمت أمة بالقفر نازلة ... رعى القياصر بعد الشاء والنعم
كم شيد المصلحون العاملون بها ... فى الشرق والغرب ملكاً باذخ العظم
للعلم والعدل والتمدين ماعزموا ... من الأمور، وما شدوا من الحزم
سرعان ما افتحوا الدنيا لملتهم ... وأنهلوا الناس من سلسالها الشبم
ساروا عليها هداة الناس، فهى بهم ... إلى الفلاح طريق واضح العظم
لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم ... وحائط البغى إن تلمسه ينهدم
نالوا السعادة فى الدارين واجتمعوا ... على عميم من الرضوان مقتسم
دع عنك روما، وآثينا، وما حوتا ... كل اليواقيت فى بغداد والتوم
وخل كسرى، وإيوانا يدل به ... هوى على أثر النيران والأيم
واترك رعمسيس، إن الملك مظهره ... فى نهضة العدل، لا فى نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت ... دار السلام لها ألقت يد السلم
ما ضارعتها بياناً عند ملتأم ... ولا حكتها قضاء عند مختصم
ولا احتوت فى طراز من قياصرها ... على رشيد، ومأمون، ومعتصم
من الذين إذا سارت كتائبهم ... تصرفوا بحدود الأرض والتخم
ويجلسون إلى علم ومعرفة ... فلا يدانون فى عقل ولافهم
يطأطئ العلماء الهام إن نبسوا ... من هيبة العلم، لا من هيبة الحكم
ويمطرون، فما بالأرض من محل ... ولا بمن بات فوق الأرض من عدم
خلائف الله جلوا عن موازنة ... فلا تقيسن أملاك الورى بهم
من فى البرية كالفاروق معدلة؟ ... وكابن عبدالعزيز الخاشع الحشم؟
وكالإمام إذا ما فض مزدحماً ... بمدمع فى مآقى القوم مزدحم
الزاخر العذب فى علم وفى أدب ... والناصر الندب فى حرب وفى سلم؟
أو كابن عفان والقرآن فى يده ... يحنو عليه كما تحنو على الفطم

ويجمـــع الآى ترتيبـــا وينظمهـــا عقداً بجيـد الليـالى غـير منفصـم؟
جرحان فـى كبد الإسـلام ما التأما جرح الشهيد، وجـرح بالكتـاب دمـى
ومـــا بـــلاء أبـــى بكـــر بمتهـــم بعد الجلائـل فـى الأفعـال والخـدم
بالحزم والعزم حاط الدين فى محن أضلـت الحلـم مـن كهـل ومحتلـم
وحدن بالراشد الفاروق عن رشـد فـى الموت، وهـو يقيـن غير منبهـم
يجـادل القـــوم مســـتلا مهنـــده فى أعظم الرسل قدراً، كيف لم يـدم؟
لا تعـذلـوه إذا طـاف الـذهول بـه مات الحبيب، فضل الصب عن رغم

۞۞۞

يـارب صلّ وسـلم مـا أردت علـى نزيـل عرشـك خـير الرسـل كلهـم
محـى الليـالى صـلاة، لا يقطعهـا إلا بدمـع مـن الإشـفاق منسـجم
مسـبحاً لـك جنـح الليـل، محتمـلاً ضرا من السهد، أو ضراً من الروم
رضيـة نفسـه، لاتشـتكى سـأماً وما مع الحب إن أخلصت من سأم
وصـل ربـى علـى آل لـه نجـب جعلـت فيهـم لـواء البيـت والحـرم
بيض الوجوه، ووجـه الدهر ذوحلك شم الأنـوف، وأنـف الحادثـات حمـى
وأهـد خـير صـلاة منـك أربعـة فى الصحب، صحبتهم مرعية الحرم
الراكبيـن إذا نـادى النبـى بهـم مـا هـال من جلل، واشتد من عمم
الصـابريـن ونفس الأرض واجفـة الضاحكين إلـى الأخطـار والقحـم

۞۞۞

يـارب، هبـت شـعوب مـن منيتهـا واسـتيقظت أمـم مـن رقـدة العـدم
سعد، ونحْـس، وملـك أنـت مالكـه تديـل مـن نعـم فيـه، ومـن نقـم
رأى قضـاؤك فينـا رأى حكمتـه أكـرم بوجهـك مـن قـاض ومنتقـم
فـالطف لأجل رسـول العـالمين بنـا ولا تـزد قومـه خسـفاً، ولا تسـم
يـارب، أحسـنت بـدء المسـلمين بـه فتمـم الفضـل، وامنـح حسـن مختتـم

۞۞۞

الهمزية النبوية

أحمد شوقي

وُلِد الهدى، فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو، والحظيرة تزدهي ... والمنتهى، والسدرة العصماء
وحديقة الفرقان ضاحكة الربا ... بالترجمان، شذية، غناء
والوحي يقطر سلسلاً من سلسل ... واللوح والقلم البديع رواء
نظمت أسامي الرسل فهي صحيفة ... في اللوح، واسم محمد طغراء
اسم الجلالة في بديع حروفه ... ألف هنالك، واسم (طه) الباء

۞۞۞

يا خير من جاء الوجود، تحية ... من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا
بيت النبيّين الذي لا يلتقي ... إلا الحنائف فيه والحنفاء
خير الأبوة حازهم لك (آدم) ... دون الأنام، وأحرزت حواء
هم أدركوا عز النبوة وانتهت ... فيها إليك العزة القعساء
خلقت لبيتك، وهو مخلوق لها ... إن العظائم كفؤها العظماء
بك بشر الله السماء فزينت ... وتضوعت مسكاً بك الغبراء
وبدا محياك الذي قسماته ... حق، وغرته هدى وحياء
وعليه من نور النبوة رونق ... ومن الخليل وهديه سيماء
أثنى (المسيح) عليه خلف سمائه ... وتهللت واهتزت (العذراء)
يوم يتيه على الزمان صباحه ... ومساؤه (بمحمدٍ) وضاء
الحق عالي الركن فيه، مظفر ... في الملك لا يعلو عليه لواء
ذعرت عروش الظالمين، فزلزلت ... وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم ... خمدت ذوائبها، وغاض الماء
والآي تترى، والخوارق جمة ... (جبريل) روّاح بها غدّاء

نعم اليتيم بدت مخايل فضله ... واليتم رزق بعضه وذكاء
فى المهد يستسقى الحيا برجائه ... وبقصده تستدفع البأساء
بسوى الأمانة فى الصبا والصدق لم ... يعرفه أهل الصدق والأمناء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
لو لم تقم دينا، لقامت وحدها ... ديناً تضىء بنوره الآناء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء
أما الجمال؛ فأنت شمس سمائه ... وملاحة (الصديق) منك أياء
والحسن من كرم الوجوه وخيره ... ما أوتى القُوّاد والزعماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادراً، ومقدّراً ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم، أو أب ... هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة ... فى الحق، لا ضغن ولا بغضاء
وإذا رضيت فذاك فى مرضاته ... ورضى الكثير تحلم ورياء
وإذا خطبت فللمنابر هزة ... تعرو الندى، وللقلوب بكاء
وإذا قضيت فلا ارتياب، كأنما ... جاء الخصوم من السماء قضاء
وإذا حميت الماء لم يورد، ولو ... أن القياصر والملوك ظماء
وإذا أجرت فأنت بيت الله، لم ... يدخل عليه المستجير عداء
وإذا ملكت النفس قمت ببرّها ... ولو ان ما ملكت يداك الشاء
وإذا بنيت فخير زوج عشرة ... وإذا ابتنيت فدونك الآباء
وإذا صحبت رأى الوفاء مجسماً ... فى بردك الأصحاب والخلطاء
وإذا أخذت العهد، أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا مشيت إلى العدا فغضنفر ... وإذا جريت فإنك النكباء
وتمد حلمك للسفيه مداريا ... حتى يضيق بعرضك السفهاء
فى كل نفس من سُطاك مهابة ... ولكل نفس فى نداك رجاء
والرأى لم ينُض المهند دونه ... كالسيف لم تضرب به الآراء

۞۞۞

يأيهـا الأمـى، حسـبك رتبـة | فـى العلـم أن دانـت بـك العلمـاء
الذكـر آيـة ربـك الكبـرى التـى | فيهـا لبـاغى المعجـزات غنـاء
صـدر البيـان لـه إذا التقـت اللغـى | وتقـدم البلغـاء والفصحـاء
نسـخت بـه التـوراة وهـى وضيئـة | وتخلـف الإنجيـل وهـو ذكـاء
لمـا تمشـى فـى (الحجـاز) حكيمـه | فضـت (عكـاظ) بـه، وقـام حـراء
أزرى بمنطـق أهلـه وبيـانهم | وحـى يقصـر دونـه البلغـاء
حسدوا، فقـالوا: شـاعر، أو سـاحر | ومـن الحسـود يكـون الاسـتهزاء
قد نال (بالهادى) الكريم و (بـالهدى) | مـا لـم تنـل مـن سـؤدد سـيناء
أمسـى كـأنك مـن جلالـك أمـة | وكأنـه مـن أنسـه بيـداء
يوحـى إليـك النـور فـى ظلماتـه | متتابعـاً، تجلـى بـه الظلمـاء
ديـن يشـيد آيـة فـى آيـة | لبناتـه السـورات والأضـواء
الحق فيـه هـو الأسـاس، وكيـف لا | واللـه جـل جلالـه البنّـاء؟
أمـا حديثـك فـى العقـول فمشـرع | والعلـم والحكـم الغوالـى المـاء
هـو صبغـة الفرقـان، نفحـة قدسـه | والسـين مـن سـوراته والـراء
جـرت الفصاحـة مـن ينـابيع النهـى | مـن دوحـه، وتفجـر الإنشـاء
فـى بحـره للسـابحين بـه علـى | أدب الحيـاة وعلمهـا إرسـاء
أتـت الـدهـور علـى سلافته، ولم | تفـن السـلاف، ولا سـلا الندماء

۞۞۞

بـك يـا ابـن عبداللـه قـامت سـمحة | بـالحق مـن ملـل الهـدى غـراء
بنيت علـى التوحيـد، وهـى حقيقـة | نـادى بهـا سـقراط والقدمـاء
وجد الزُعـاف مـن السـموم لأجلهـا | كالشـهد، ثـم تتـابع الشـهداء
ومشـى علـى وجـه الزمـان بنورهـا | كهـان وادى النيـل والعرفـاء
إيزيـس ذات الملـك حيـن توحـدت | أخـذت قـوام أمورهـا الأشـياء
لمـا دعـوت النـاس لبـى عـاقل | وأصـم منـك الجـاهلين نـداء

أبوا الخروج إليك من أوهامهم والناس فى أوهامهم سجناء
ومن العقول جداول وجلامد ومن النفوس حرائر وإماء
داء الجماعة من أرسطاليس لم يوصف له حتى أتيت دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر، والخلافة بيعة والأمر شورى، والحقوق قضاء
الإشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً، وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة، وفريضة لا منة ممنونة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء
فلو ان إنسانا تخيَّر ملة ما اختار إلا دينك الفقراء

❁❁❁

يأيها المسرى به شرفا إلى ما لا تنال الشمس والجوزاء
يتساءلون – وأنت أطهر هيكل – : بالروح أم بالهيكل الإسراء؟
بهما سموت مطهرين، كلاهما نور، وريحانية، وبهاء
فضل عليك لذى الجلال ومنة والله يفعل ما يرى ويشاء
تغشى الغيوب من العوالم، كلما طويت سماء قلدتك سماء
فى كل منطقة حواشى نورها نون، وأنت النقطة الزهراء
أنت الجمال بها، وأنت المجتلى والكف، والمرآة، والحسناء
الله هيأ من حظيرة قدسه نزلاً لذاتك لم يجزه علاء
العرش تحتك سدة وقوائما ومناكب الروح الأمين وطاء
و الرسل دون العرش لم يؤذن لهم حاشا لغيرك موعد ولقاء

❁❁❁

الخيل تأبى غير (أحمد) حامياً وبها إذا ذكر اسمه خيلاء
شيخ الفوارس يعلمون مكانه إن هيجت آسادها الهيجاء
وإذا تصدى للظبى فمهند أو للرماح فصعدة سمراء
وإذا رمى عن قوسه فيمينه قدر، وما ترمى اليمين قضاء
من كل داعى الحق همة سيفه فلسيفه فى الراسيات مضاء
ساقى الجريح ومطعم الأسرى، ومن أمنت سنابك خيله الأشلاء
إن الشجاعة فى الرجال غلاظة مالم تزنها رأفة وسخاء
والحرب من شرف الشعوب، فإن بغوا فالمجد مما يدعون براء
والحرب يبعثها القوى تجبرا وينوء تحت بلائها الضعفاء
كم من غزاة للرسول كريمة فيها رضى للحق أو إعلاء
كانت لجند الله فيها شدة فى إثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها فعلى الجهالة والضلال عفاء
دعموا على الحرب السلام، وطالما حقنت دماء فى الزمان دماء
الحق عرض الله، كل أبية بين النفوس حمى له ووقاء
هل كان حول محمد من قومه إلا صبى واحد ونساء؟
فدعا، فلبى فى القبائل عصبة مستضعفون، قلائل أنضاء
ردوا ببأس العزم عنه من الأذى ما لا ترد الصخرة الصماء
والحق والإيمان إن صبا على برد ففيه كتيبة خرساء
نسفوا بناء الشرك، فهو خرائب واستأصلوا الأصنام، فهى هباء
يمشون تغضى الأرض منهم هيبة وبهم حيال نعيمها إغضاء
حتى إذا فتحت لهم أطرافها لم يطغهم ترف ولا نعماء

✡✡✡

يا من له عز الشفاعة وحده وهو المنزه، ماله شفعاء
عرش القيامة أنت تحت لوائه والحوض أنت حياله السقاء
تروى وتسقى الصالحين ثوابهم والصالحات ذخائر وجزاء

أ لمثـل هذا ذقت فى الدنيا الطــوى   وانشــق مــن خلــق عليــك رداء؟

۞۞۞

لـى فـى مديحـك يـا رسـول عرائـس   تيمــن فيــك، وشــاقهن جــلاء
هـن الحسـان، فـإن قبلـت تكرمـا   فمهورهـــن شـــفاعة حســـناء
أنـت الـذى نظـم البريـة دينـه   مـــاذا يقــول وينظــم الشــعراء؟
المصلحـون أصـابع جمعـت يـداً   هـى أنت، بـل أنـت اليـد البيضـاء
مـا جئـت بـابك مادحـاً، بـل داعيـاً   ومــن المديــح تضــرع ودعــاء
أدعوك عـن قومـى الضعـاف لأزمـة   فـى مثلهـا يلقـى عليـك رجـاء
أدرى رسـول اللـه أن نفوسـهم   ركبـت هواهـا، والقلـوب هـواء؟
متفككـون، فمـا تضـم نفوسـهم   ثقـة، ولا جمـع القلـوب صفـاء
رقـدوا، وغـرهـم نعيـم باطـل   ونعيـم قـوم فـى القيـود بـلاء
ظلمـوا شـريعتك التـى نلنـا بهـا   مـالم ينـل فـى رومـة الفقهـاء
مشت الحضارة فى سناهـا، واهتدى   فى الـدين والدنيـا بهـا السعـداء

۞۞۞

صلى عليـك اللـه مـا صحب الدجى   حـادٍ، وحنـت بـالفلا وجنـاء
واسـتقبل الرضـوان فـى غرفـاتهم   بجنـان عـدن آلـك السـمحاء
خير الوسـائل، مـن يقـع منهـم علـى   سـبب إليـك فحسـبى (الزهـراء)

۞۞۞

ذكرى المولد

أحمد شوقي

سلوا قلبي غداة سلا وثابا … لعل على الجمال له عتابا
ويسأل في الحوادث ذو صواب … فهل ترك الجمال له صوابا؟
وكنت إذا سألت القلب يوماً … تولى الدمع عن قلبي الجوابا
ولي بين الضلوع دم ولحم … هما الواهي الذي ثكل الشبابا
تسرب في الدموع، فقلت: ولى … وصفّق في الضلوع، فقلت: ثابا
ولو خلقت قلوب من حديد … لما حملت كما حمل العذابا
وأحباب سقيت بهم سلافاً … وكان الوصل من قصر حبابا
ونادمنا الشباب على بساط … من اللذات مختلفٍ شرابا
وكل بساط عيش سوف يطوى … وإن طال الزمان به وطابا
كأن القلب بعدهم غريب … إذا عادته ذكرى الأهل ذابا
ولا ينبيك عن خلق الليالي … كمن فقد الأحبة والصحابا

۞۞۞

أخا الدنيا، أرى دنياك أفعى … تبدل كل آونةٍ إهابا
وأن الرقط أيقظ هاجعات … وأترع في ظلال السلم نابا
ومن عجب تشيب عاشقيها … وتفنيهم، وما برحت كعابا
فمن يغتر بالدنيا فإني … لبست بها فأبليت الثيابا
لها ضحك القيان إلى غبي … ولي ضحك اللبيب إذا تغابى
جنيت بروضها ورداً، وشوكاً … وذقت بكأسها شهداً، وصابا
فلم أر غير حكم الله حكماً … ولم أر دون باب الله بابا
ولا عظمت في الأشياء إلا … صحيح العلم، والأدب اللبابا
ولا كرمت إلا وجه حر … يقلد قومه المنن الرغابا
ولم أر مثل جمع المال داءً … ولا مثل البخيل به مصابا

فـلا تقتلـك شـهوته، وزنهـا كمـا تـزن الطعـام أو الشـرابا
وخـذ لبنيـك والأيـام ذخـراً وأعـط اللـه حصتـه احتسـابا
فلـو طـالعت أحـداث الليـالى وجـدت الفقـر أقربهـا انتيابـا
وأن البـر خـير فـى حيـاة وأبقـى بعـد صاحبـه ثوابـا
وأن الشـر يصـدع فاعليـه ولـم أر خـيراً بالشـر آبـا
فرفقـاً بـالبنين إذا الليـالى علـى الأعقـاب أوقعـت العقابـا
ولـم يتقلـدوا شكـر اليتامـى ولا ادّرعـوا الـدعـاء المستجابـا

۞۞۞

عجبـت لمعشـر صلـوا وصـاموا عواهـر، خشـيةً وتقـى كذابـا
وتلفيهـم حيـال المـال صمـاً إذا داعـى الزكـاة بهـم أهابـا
لقـد كتمـوا نصيـب اللـه منـه كـأن اللـه لـم يحـص النصابـا
ومـن يعـدل بحـب اللـه شـيئاً كحـب المـال ضـل هـوىً وخابـا
أراد اللـه بـالفقراء بـراً وبالأيتـام حبـاً وارتبابـا
فـرُبَّ صغـير قـوم علمـوه سـما وحمـى المسـومة العرابـا
وكـان لقومـه نفعـاً وفخـراً ولـو تركـوه كـان أذىً وعابـا
فعلـم مـا اسـتطعت، لعـل جيـلاً سـيأتى يحـدث العجـب العجابـا
ولا ترهـق شـباب الحـى يأسـاً فـإن اليـأس يخـترم الشـبابا
يريـد الخـالق الـرزق اشـتراكاً وإن يـك خـص أقوامـاً وحـابى
فمـا حـرم المجـد جنـى يديـه ولا نسـى الشـقى، ولا المصابـا
ولـولا البخـل لـم يهلـك فريـق علـى الأقـدار تلقـاهم غضابـا
تعبـت بأهلـه لومـاً، وقبلـى دعـاة البـر قـد سـئموا الخطابـا
ولـو أنـى خطبـت علـى جمـاد فجـرت بـه الينـابيع العذابـا
ألـم تـر للهـواء جـرى فـأفضى إلـى الأكـواخ، واخـترق القبابـا؟
وأن الشـمس فـى الآفـاق تغشـى حمـى كسـرى، كمـا تغشـى اليبابـا؟

وأن المـــاء تـــروى الأســـد منـــه ويشـــفى مـــن تلعلعهـــا الكلابـــا؟
وســـوى اللـــه بينكـــم المنايـــا ووســـدكم مـــع الرســـل الترابـــا
وأرســل عــائــلاً منكــم يتيمـــاً دنــا مـــن ذى الجلال فكــان قــابــا

۞۞۞

نبـــى الـــبر، بينـــه ســـبيلاً وســـن خلالـــه، وهـــدى الشـــعايا
تفــرق بعــد عيســى النــاس فيــه فلمـــا جـــاء كـــان لهـــم متابـــا
وشــافى النفــس مــن نزعــات شــر كشـــافٍ مـــن طبائعهـــا الذئابـــا
وكـــان بيانـــه للهـــدى ســـبلاً وكـــانت خيلـــه للحـــق غابـــا
وعلمنـــا بنـــاء المجـــد، حتـــى أخذنـــا إمـــرة الأرض اغتصابـــا
ومـــا نيـــل المطـــالب بـــالتمنى ولكـــن تؤخـــذ الدنيـــا غلابـــا
ومـــا استعصـــى علـــى قـــوم منال إذا الإقـــدام كـــان لهـــم ركـابـــا
تجلـــى مولـــد الهـــادى، وعمـــت بشـــائره البـــوادى والقصابـــا
وأســـدت للبريـــة بنـــت وهـــب يـــداً بيضـــاء، طوقـــت الرقابـــا
لقـــد وضعتـــه وهاجـــاً، منـــيراً كمـــا تلـــد الســـماوات الشـــهابا
فقــام علــى ســماء البيــت نــوراً يضـــىء جبـــال مكـــة والنقابـــا
وضــاعت يثــرب الفيحــاء مسكـــاً وفــاح القـــاع أرجــاء وطـــابــا

۞۞۞

أبــا الزهــراء، قــد جــاوزت قــدرى بمدحـــك، بيـــد أن لـــى انتســـابا
فمـــا عـــرف البلاغـــة ذو بيـــان إذا لـــم يتخـــذك لـــه كتابـــا
مدحـــت المـــالكين، فـــزدت قـــدراً وحيـــن مدحتـــك اقتـــدت الســـحابا
ســـألت اللـــه فـــى أبنـــاء دينـــى فـــإن تكـــن الوســـيلة لـــى أجابـــا
ومـــا للمســـلمين ســـواك حصـــن إذا مـــا الضـــر مســـهم ونابـــا
كـــأن النحـــس حيـــن جـــرى عليهـــم أطـــار بكـــل مملكـــة غرابـــا
ولــو حفظــوا ســـبيلك كــان نــورا وكـــان مـــن النحــوس لهـــم حجابـــا

بنيـت لهـم مـن الأخـلاق ركنـاً فخـانوا الركـن، فـانهدم اضطرابـا
وكـان جنـابهم فيهـا مهيبـاً وللأخـلاق أجـدر أن تهابـا
فلولاهـا لسـاوى الليـث ذئبـاً وسـاوى الصـارم المـاضى قرابـا
فـإن قرنـت مكارمهـا بعلـم تذللـت العـلا بهمـا صعابـا
وفـى هـذا الزمـان مسـيح علـم يـرد علـى بنـى الأمـم الشـبابا



العُمَـــريـــة

حافظ إبراهيم

حسـب القوافـى وحسبى حيـن ألقيهـا ... أنـى إلـى سـاحة (الفـاروق) أهديهـا
لاهمّ، هـب لـى بيانـاً أسـتعين بـه ... علـى قضـاء حقـوق نـام قاضيهـا
قـد نـازعتنى نفسـى أن أوفيهـا ... وليس فـى طـوق مثلـى أن يوفيهـا
فمـر سَـرىّ المعانـى أن يـواتينى ... فيهـا فـإنى ضعيف الحـال واهيها

۞۞۞

مولـى المغـيرة لا جـادتك غاديـة ... من رحمـة اللـه مـا جـادت غواديهـا
مزقـت منـه أديمـا حشـوه همـم ... فـى ذمـة اللـه عاليهـا وماضيهـا
طعنـت خـاصرة (الفـاروق) منتقمـاً ... مـن الحنيفـة فـى أعلـى مجاليهـا
فـأصبحت دولـة الإسـلام حـائرة ... تشـكو الوجيعـة لمـا مـات آسـيها
مضـى وخلفهـا كـالطود راسـخة ... وزان بـالعدل والتقـوى مغانيهـا
تنبـو المعـاول عنهـا وهـى قائمـة ... والهـادمون كثـير فـى نواحيهـا
حتـى إذا مـا تولاهـا مهدمهـا ... صـاح الـزوال بهـا فـاندك عاليهـا
واهـا علـى دولـة بـالأمس قـد مـلأت ... جوانـب الشـرق رغـدا مـن أياديهـا
كـم ظللتهـا وحاطتهـا بأجنحـة ... عـن أعيـن الدهـر قـد كـانت تواريهـا
مـن العنايـة قـد ريشـت قوادمهـا ... ومـن صميـم التقـى ريشـت خوافيهـا
واللـه مـا غالهـا قدمـاً وكـاد لهـا ... واجتـث دوحتهـا إلا مواليهـا
لو أنهـا فـى صميـم العرب قـد بقيت ... لمـا نعاهـا علـى الأيـام ناعيهـا
يـاليتهم سـمعوا مـا قالـه (عمـر) ... والـروح قـد بلغـت منـه تراقيهـا:
لا تكثـروا مـن مـواليكم فـإن لهـم ... مطـامعـا بسمـات الضعـف تخفيهـا

۞۞۞

رأيـت فـى الديـن آراء موفقـة ... فـأنزل اللـه قرآنـاً يزكيهـا
وكنـت أول مـن قـرت بصحبتـه ... عيـن الحنيفـة واجتـازت أمانيهـا

قد كنت أعـدى أعاديهـا فصـرت لهـا بنعمـة اللـه حصنـا مـن أعاديهـا
خرجـت تبغـى أذاهـا فـى (محمدهـا) وللحنيفـة جبـار يواليهـا
فلـم تكـد تسـمع الآيـات بالغـة حتـى أنكفـأت تنـاوى مـن يناويهـا
سـمعت (سـورة طـه) مـن مرتلهـا فزلزلـت نيـة قـد كنـت تنويهـا
وقلـت فيهـا مقـالا لا يطاولـه قـول المحب الذى قد بـات يطريهـا
ويـوم أسـلمت عز الحـق وارتفعـت عـن كـاهل الديـن أثقـال يعانيهـا
وصـاح فيـه (بـلال) صيحـة خشـعت لهـا القلـوب ولبـت أمـر باريهـا
فـأنت فـى زمـن (المختـار) منجدهـا وأنـت فـى زمـن (الصديـق) منجيهـا
كـم استـراك رسـول اللـه مغتبطا بحكمـة لـك عنـد الـرأى يـلفيهـا

✿✿✿

وموقف لك بعد (المصطفى) افـترقت فيـه الصحابـة لمـا غـاب هاديهـا
بـايعت فيـه (أبـا بكـر) فبايعـه علـى الخلافـة قاصيهـا ودانيهـا
وأطفئـت فتنـة لـولاك لاسـتعرت بيـن القبـائل وانسـابت أفاعيهـا
بـات النبـى مسـجى فـى حظيرتـه وأنـت مسـتعر الأحشـاء داميهـا
تهيم بين عجيج النـاس فـى دهـش من نبأة قد سرى فى الأرض ساريها
تصيح: من قال نفس المصطفى قبضت علـوت هامتـه بالسـيف أبريهـا
أنسـاك حبـك طـه أنـه بشـر يجرى عليه شؤون الكون مجريها
وأنـه وارد لابـد مـورده مـن المنيـة لا يعفيـه سـاقيها
نسـيت فـى حـق طـه آيـة نزلـت وقـد يذكـر بالآيـات ناسـيها
ذهلـت يومـا فكـانت فتنـة عمـم وثـاب رشـدك فانجـابت دياجيهـا
فللسـقيفة يـوم أنـت صاحبـه فيـه الخلافـة قـد شـيدت رواسـيها
مـدت لهـا (الأوس) كفـا كـى تناولهـا فمـدت (الخـزرج) الأيـدى تباريهـا
وظـن كـل فريـق أن صـاحبهم أولـى بهـا وأتـى الشـحناء آتيهـا
حتـى انـبريت لهـم فـارتد طـامعهم عنهـا وآخـى (أبـو بكـر) أواخيهـا

وقولـــة لعلـــى قالهـــا عمـــر أكـــرم بســـامعها أعظـــم بملقيهـــا!
حرقـت دارك لا أبقـى عليـك بهـا إن لـم تبـايع وبنـت المصطفى فيهـا
ما كان غير (أبـى حفص) يفوه بها أمـــام فـــارس عدنـــان وحاميهـــا
كلاهمـا فـى سـبيل الحـق عزمتـه لا تنثنـــى أو يكـــون الحـــق ثانيهـــا
فـــاذكـــرهمـا وتـرحـم كلما ذكروا أعــاظمـاً ألـــهوا فـــى الكـون تـــأليها

۞۞۞

كم خفت فى الله مضعوفا دعـاك بـه وكـــم أخفـــت قويـــا ينثنـــى تيهـــا
وفـى حديـث فتـى غسـان موعظـة لكـــل ذى نعـــرة يـــأبى تناســـيها
فمـــا القـــوى قويـــا رغـــم عزتـــه عنـد الخصومـة والفـاروق قاضيهـا
ومـــا الضعيف ضعيفـــا بعـد حجته وإن تخاصـــم واليـــها وراعيـــهـــا

۞۞۞

ومـا أقلـت أبـــا سـفيان حيـن طـوى عنـــك الهديـــة معـــتزا بمهديهـــا
لـم يغـن عنـــه وقـد حاسـبته حسـب ولا معاويـــــة بالشـــــام يجبيهـــــا
قيـدت منـه جليـــلا شـــاب مفرقـــه فـى عـزة ليـس مـن عـز يدانيهـا
قـد نوهـــوا باســـمه فـــى جاهليتـــه وزاده ســـــيد الكونيـــــن تنويهـــــا
فـــى فتـــح مكـــة كـــانت داره حرمـــا قـد أمـن اللـه بعـد البيـت غاشـيها
وكـل ذلـك لـم يشـفع لـدى عمـــر فـــى هفـــوة لأبـــى ســـفيان يأتيهـــا
تاللـــه لـــو فعـــل الخطـــاب فعلتـــه لمـــا ترخـــص فيهـــا أو يجازيهـــا
فـلا الحســـابة فـــى حـــق يجاملهـــا ولا القرابـــة فـــى بطـــل يحابيهـــا
وتـــلك قـــوة نـفس لـــو أراد بـــــها شـــم الجبـــال لما قـــرت رواسيهـــا

۞۞۞

سل قاهر الفرس والرومان هل شفعت لـــه الفتـــوح وهـــل أغنـــى تواليهـــا
غـزا فـأبلى وخيـل اللــه قـد عقـدت بـاليمن والنصـر والبشـرى نواصيهـا
يرمـــى الأعـــادى بـــآراء مســـددة وبـــالفوارس قـــد ســـالت مذاكيهـــا

ما واقع الروم إلا فر قارحها ... ولا رمى الفرس إلا طاش راميها
ولم يجز بلدة إلا سمعت بها ... الله أكبر تدوى فى نواحيها
عشرون موقعة مرت محجلة ... من بعد عشر بنان الفتح تحصيها
و (خالد) فى سبيل الله موقدها ... و (خالد) فى سبيل الله صاليها
أتاه أمر (أبى حفص) فقبله ... كما يقبل آى الله تاليها
واستقبل العزل فى إبان سطوته ... ومجده مستريح النفس هاديها
فاعجب لسيد مخزوم وفارسها ... يوم النزال إذا نادى مناديها
يقوده حبشى فى عمامته ... ولا تحرك مخزوم عواليها
ألقى القياد إلى الجراح ممتثلا ... وعزة النفس لم تجرح حواشيها
وانضم للجند يمشى تحت رايته ... وبالحياة إذا مالت يفديها
وما عرته شكوك فى خليفته ... ولا ارتضى إمرة الجراح تمويها
(فخالد) كان يدرى أن صاحبه ... قد وجه النفس نحو الله توجيها
فما يعالج من قول ولا عمل ... إلا أراد به للناس ترفيها
لذاك أوصى بأولاد له (عمراً) ... لما دعاه إلى الفردوس داعيها
وما نهى (عمر) فى يوم مصرعه ... نساء مخزوم أن تبكى بواكيها
وقيل: خالفت يا (فاروق) صاحبنا ... فيه وقد كان أعطى القوس باريها
فقال: خفت افتتان المسلمين به ... وفتنة النفس أعيت من يداويها
هبوه أخطأ فى تأويل مقصده ... وأنها سقطة فى عين ناعيها
فلن تعيب حصيف الرأى زلته ... حتى يعيب سيوف الهند نابيها
تالله لم يتبع فى (ابن الوليد) هوى ... ولا شفى غلة فى الصدر يطويها
لكنه قد رأى رأياً فأتبعه ... عزيمة منه لم تثلم مواضيها
لم يرع فى طاعة المولى خؤولته ... ولا رعى غيرها فيما ينافيها
وما أصاب ابنه والسوط يأخذه ... لديه من رأفة فى الحد يبديها
إن الذى برأ (الفاروق) نزهه ... عن النقائص والأغراض تنزيها
فذاك خلق من الفردوس طينته ... الله أودع فيها ما ينقيها

لا الكبــر يسكنها، لا الظلم يصحبهــا
لا الحقـد يعرفها، لا الحرص يغويها

شـــاطرت داهيـــة الســـواس ثروتـــه
ولـم تخفـه بمصـــر وهـــو واليهـــا

وأنت تعرف (عَمْـرا) فـى حواضرها
ولست تجهل (عَمْراً) فـى بواديهـا

لم تنبت الأرض كـابن العـاص داهية
يرمى الخطوب بـرأى ليس يخطيهـا

فلـم يـرغ حيلـــة فيمـــا أمـــرت بـــه
وقام (عمـرو) إلـى الأجمـال يزجيهـا

ولـــم تـــقل عـــامـــلاً منها وقد كثرت
أمـــوالـــه وفشا فى الأرض فاشيها

۞۞۞

ومـا وقـــى ابنـــك (عبداللـــه) أينقـــه
لمـا اطلعـت عليهـا فـى مراعيهـــا

رأيتهـا فـــى حمـــاه وهـــى ســـارحة
مثل القصـــور قـد اهـتزت أعاليهـا

فقلـت: مـا كــان (عبداللـه) يشــبعها
لـو لـم يكن ولـدى أو كـان يرويهـا

قـد اســتعان بجـــاهى فـــى تجارتـــه
وبـات باســم (أبـى حفـص) ينميهـا

ردوا النيـــاق لبيـــت المـــال إن لـــه
حـق الزيـــادة فيهـــا قبـــل شـــاريها

وهـــذه خطـــة للـــــه واضعهـــــا
ردت حقوقـــا فـــأغنت مســـتميحيها

مـــا الاشـــتراكية المنشـــود جانبهـــا
بين الـورى غير مبنـى من مبانيهـا

فـــإن نكـــن نحـــن أهـــليها ومنبتـها
فإنـــهم عـرفـــوهـا قبـــل أهـــليها

۞۞۞

جنـى الجمـــال علـــى (نصـــر) فغربـــه
عـــن المدينـــة تبكيــــه ويبكيهـــا

وكم رمت قسمات الحسن صاحبهـا
وأتعبـت قصبـات الســبق حاويهـا

وزهرة الروض لـولا حسن رونقهـا
لمـا اسـتطالت عليهـا كـف جانيهـا

كـــانت لـــه لمـــة فينانـــة عجـــب
علـــى جبيـــن خليـــق أن يحليهـــا

وكـان أنـى مشـــى مـــالت عقائلهـــا
شـوقاً إليـه وكـاد الحسـن يسـبيها

هتفـن تحـت الليـالى باســمه شـغفا
وللحســـان تمـــن فـــى لياليهـــا

جـــززت لمتـــه لمـــا أتيـــت بـــه
ففـاق عاطلهـا فـى الحسن حاليهـا

فصحـت فيـه تحـول عـن مدينتهـم
فإنهـــا فتنـــة أخشـــى تماديهـــا

وفتنـــه الحســـن إن هبـــت نـــوافحها
كفتنـــة الحـــرب إن هبـت سوافيها

۞۞۞

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا بين الرعية عطلا وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها سوراً من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقاً فى نومه فرأى فيه الجلالة فى أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان فى عينه ما كان يكبره من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلا وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها:
أمنت لما أقمت العدل بينهم فنمت نوم قرير العين هانيها

۞۞۞

يا رافعا راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيراً عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها وللمنية آلام تعانيها
لم أنس أمرك للمقداد يحمله إلى الجماعة إنذارا وتنبيها
إن ظل بعد ثلاث رأيها شعباً فجرد السيف واضرب فى هواديها
فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها طعم المنية مرا عن مراميها
درى عميد بنى الشورى بموضعها فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
وما استبد برأى فى حكومته إن الحكومة تغرى مستبديها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

۞۞۞

يا من صدفت عن الدنيا وزينتها فلم يغرك من دنياك مغريها
ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا أن يلبسوك من الأثواب زاهيها
ويركبوك على البرذون تقدمه خيل مطهمة تحلو مرائيها
مشى فهملج مختالاً براكبه وفى البراذين ما تزهى بعاليها
فصحت: ياقوم، كاد الزهو يقتلنى وداخلتنى حال لست أدريها
وكاد يصبو إلى دنياكم عمر ويرتضى بيع باقيه بفانيها
ردوا ركابى فلا أبغى به بدلا ردوا ثيابى فحسبى اليوم باليها

۞۞۞

ومن رآه أمام القدر منبطحا   والنار تأخذ منه وهو يذكيها
وقد تخلل فى أثناء لحيته   منها الدخان وفوه غاب فى فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على   حال تروع ـ لعمر الله ـ رائيها
يستقبل النار خوف النار فى غده   والعين من خشية سالت ماقيها

***

إن جاع فى شدة قوم شركتهم   فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة ـ والدنيا بقبضته ـ   فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته   أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها: من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
لا تمنطى شهوات النفس جامحة   فكسرة الخبز عن حلواك تجزيها
وهل يفى بيت مال المسلمين بما   توحى إليك إذا طاوعت موحيها
قالت: لك الله إنى لست أرزؤه   مالا لحاجة نفس كنت أبغيها
لكن أجنب شيئاً من وظيفتنا   فى كل يوم على حال أسويها
حتى إذا ما ملكنا ما يكافئها   شريتها ثم أنى لا أثنيها
قال: اذهبى واعلمى إن كنت جاهلة   أن القناعة تغنى نفس كاسيها
وأقبلت بعد خمس وهى حاملة   دريهمات لتقضى من تشهيها
فقال: نبهت منى غافلاً فدعى   هذى الدراهم إذ لا حق لى فيها
ويلى على عمر يرضى بموفية   على الكفاف وينهى مستزيديها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به   أولى فقومى لبيت المال رديها
كذاك أخلاقه كانت وما عهدت   بعد النبوة أخلاق تحاكيها

***

فى الجاهلية والإسلام هيبته   تثنى الخطوب فلا تعدو عواديها
فى طى شدته أسرار مرحمة   للعالمين ولكن ليس يفشيها
وبين جنبيه فى أوفى صرامته   فؤاد والدة ترعى ذراريها
أغنت عن الصارم المصقول درته   فكم أخافت غوى النفس عاتيها

كانت له كعصا (موسى) لصاحبها ... لا ينزل البطل مجتازاً بواديها
أخاف حتى الذرارى فى ملاعبها ... وراع حتى الغوانى فى ملاهيها
أريت تلك التى لله قد نذرت ... أنشودة لرسول الله تهديها
قالت: نذرت لئن عاد النبى لنا ... من غزوة، لعلى دفى أغنيها
ويممت حضرة الهادى وقد ملأت ... أنوار طلعته أرجاء ناديها
وأستأذنت ومشت بالدف واندفعت ... تشجى بألحانها ما شاء مشجيها
(والمصطفى) (وأبو بكر) بجانبه ... لا ينكران عليها من أغانيها
حتى إذا لاح من بعد لها (عمر) ... خارت قواها وكاد الخوف يرديها
وخبأت دفها فى ثوبها فرقاً ... منه وودت لو ان الأرض تطويها
قد كان حلم رسول الله يؤنسها ... فجاء بطش (أبى حفص) يخشيها
فقال مهبط وحى الله مبتسماً ... وفى ابتسامته معنى يواسيها
قد فر شيطانها لما رأى عمراً ... إن الشياطين تخشى بأس مخزيها

۞۞۞

وفتية ولعوا بالراح فانتبذوا ... لهم مكاناً وجدوا فى تعاطيها
ظهرت حائطهم لما علمت بهم ... والليل معتكر الأرجاء ساجيها
حتى تبينتهم والخمر قد أخذت ... تعلو ذؤابة ساقيها وحاسيها
سفهت آراءهم فيها فما لبثوا ... أن أوسعوك على ما جئت تسفيها
ورمت تفقيههم فى دينهم فإذا ... بالشرب قد برعوا (الفاروق) تفقيها
قالوا: مكانك قد جئنا بواحدة ... وجئتنا بثلاث لا تباليها
فأت البيوت من الأبواب (يا عمر) ... فقد يزن من الحيطان آتيها
واستأذن الناس إن تغشى بيوتهم ... ولا تلم بدار أو تحييها
ولا تجسس فهذى الآى قد نزلت ... بالنهى عنه فلم تذكر نواهيها
فعدت عنهم وقد أكبرت حجتهم ... لما رأيت كتاب الله يمليها
وما أنفت وإن كانوا على حرج ... من أن يحجك بالآيات عاصيها

۞۞۞

وسرحة فى سماء السرح قد رفعت ببيعة المصطفى من رأسها تيها
أزلتها حين غالوا فى الطواف بها وكان تطوافهم للدين تشويها

۞۞۞

هذى مناقبه فى عهد دولته للشاهدين وللأعقاب أحكيها
فى كل واحدة منهن نابلة من الطبائع تغذو نفس واعيها
لعل فى أمة الإسلام نابتة تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من (عمر) حتى ينبه منها عين غافيها

۞۞۞

من وحى الحرمين

محمد مصطفى حمام

آنسـت نـور اللـه جـل جلالـه ... ومشـيت حيـث مشـى النبـى وآلـه
وبلغـت أحسـن مـا تمنـى مسـلم ... وأعـز مـا يسـمو إليـه خيالـه
مكنـت مـن حظـى فليـس بشـاغلى ... إدبـاره عنـى ولا إقبالـه
مـن يختتـم سـفر الحيـاة برجعـة ... للـه طـاب ختامـه ومآلـه
فضـل مـن الرحمـن كرمنـى بـه ... وهـو الـذى لـم تجفنـى أفضالـه
مـا زال ظـل اللـه معتصمى ويا ... ويلـى إذا امتنـعت علـى ظلالـه

۞۞۞

يـارب، جـاء إليـك يسـألك الهـدى ... عبـد لـه أوزاره وضلالـه
قد خـال آفـاق الحجـاز تضيـق عـن ... آثامـه وبهـا تنـوء جبالـه
عـبر البحـار إلـى حمـاك ودمعـه ... آمالـه أو دمعـه أوجالـه
وخطـا بـأرضك ذاهـلاً وكأنمـا ... طفقـت تطـارد خطـوه أعمالـه
حتـى إذ البيـت المحـرم ضمـه ... قـرت بـلابلـه وأصلـح بالـه

۞۞۞

يـارب قـد بلغتنـى أملـى ومـن ... آواه بيتـك لـم تخـب آمالـه
أنزلـت فـى القلـب اللهيـف سـكينة ... لا روعـه بـاق ولا زلزالـه
وأنلتنـى شـرف الطـواف وعـزه ... سـبحان ربـى لا يغيـض نوالـه
وشـفيت شـوقى للحطيـم وزمـزم ... والشوق طـال علـى الفـؤاد مطالـه
ولقـد عببـت زلال زمـزم غاسـلا ... قلبـى بـه، نعـم الغسـول زلالـه
قـد حرم الـرى الحـرام علـى دمـى ... وجـرى بزمـزم فـى الدمـاء حلالـه
ومقـام إبراهيـم قـد جاورتـه ... ولـه سـناه وقـاره وجلالـه
وسـعدت بـالحجر الكريـم مقبـلا ... ومجـال إزجـاء الدعـاء مجالـه
وطربـت للتسـبيح مـن طـير الحمـى ... وهدلـت لمـا شـاقنى هدالـه

هذا الحمى قد كنت بعض حمامه   ولكل شاد فى الورى أمثاله
أنس الحمام إلى، حتى خلته   لى من كرام الآل أو أنا آله
لى شدوه، لى أمنه، ولى اسمه   إن لم يكن لى رسمه وجماله
وخرجت من نسك إلى نسك كما   يهفو لأعذب مورد نهاله
وصحبت موج المحرمين وكلهم   فرح وسربال التقى سرباله
بين الصفا والمروة انبعثوا وهم   عرس يزف نساؤه ورجاله
نشطوا فما ناء المسن بسنه   وقووا فما أعيا الهزيل هزاله
هان الزحام عليهمو فى نسكهم   لا حره يشكى ولا أهواله
الله ربى وهو أرحم راحم   تغنى الحجيج عن الظلال ظلاله
ووقفت فى عرفات أذكر وقفة   هى موثق الإسلام وهى كماله
هى وقفة للمصطفى أرست بها   ركن الحنيف يمينه وشماله
زكى وعلم ثم ودع قومه   وعن الإله ووحيه أقواله
صدق الوداع، ففارق الدنيا إلى   أهل السماء فأحسن استقباله
ما بين أضياف السماء نظيره   ما فى كواكبها الحسان مثاله
ثم ازدلفت إلى "منى" والكون يمـ   ـلؤه السنا والعيد هل هلاله
ونحرت والجمع العظيم مكبر   ودم الذبائح قد جرى سلساله
ورميت بالجمرات إبليس الذى   هو لابن آدم خسره وخباله
وأفضت للبيت العتيق تباركت   أصباحه وتقدست آصاله
ثم اتجهت لطيبة، طوبى لمن   شدت إلى مثوى النبى رحاله
ولقد مررت بآل بدر خاشعا   من ذا يفوز بحظهم ويناله
قد عز عند الله منصبهم فهم   عمال دين الله أو أبطاله
وصدحت فى حرم الرسول مؤذنا   والشعر أطلق بالمديح عقاله
فكأننى فى مدحه حسانه   وكأنما أنا فى الأذان بلاله
ووقفت بالصديق جل جهاده   وأعز بأس المسلمين نضاله
وصفا لفخر المرسلين وداده   وزكت لدى الله العلى خلاله

وهتفت بالفاروق يا من نهجه … عدل ومنوال الهدى منواله
من علم الأقيال خشيته ومن … كسرت نصال المشركين نصاله
وذكرت عمار البقيع وكل من … وصلت بأسباب النبي حباله
إن الذين ذكرت، آل محمد … أزواجه، أبناؤه، أنساله
أصهاره، أصحابه، أنصاره … والضاربون بسيفه، ورجاله

۞۞۞

ما بين مكة والمدينة موسم … لله، قد حفلت بنا أحفاله
على قضيت حقوقه عندى فلا … تركت فرائضه ولا أنفاله
على المتاب قد ارتضاه البارئ الـ … متكبر الحي الشديد محاله
وأعاد حجي من رجيم، همه … إفساد ما قدمت أو إبطاله
على من الفرق السعيد ولست من … فرق شقي أحبطت أعماله

۞۞۞

يا من يحب التائبين دعاك من … صدق المتاب فهل يجاب سؤاله؟
المسلمون ودينهم في محنة … لم يخف حالهمو عليك وحاله
وأراهمو متفرقين كأنهم … جسم سوى مزقت أوصاله
وأرهمو قد مكنوا لعدوهم … فتملكت أعناقهم أغلاله
صال العدو لديهمو متجبرا … واشتد فيهم بطشه ونكاله
وإخال منهم من يخون عهوده … ومن الخيانة جاهه أو ماله
وإخال من فساقهم من غره … إمهال رب العرش لا إهماله
وإخال منهم من يتوب لعلة … فإذا انقضت غلب المتاب ضلاله
يارب ألزمنا صراطك تنصرف … عنا مآسي يومنا ووباله
يا من ينير الروح باهر نوره … ويزف ألوان الجمال جماله

۞۞۞

رسالة فى ليلة التنفيذ

هاشم الرفاعى

أبتـاه .. مـاذا قـد يخـط بنـانى ... والحبـل والجـلاد منتظـران
هـذا الكتـاب إليـك مـن زنزانـة ... مقـرورة، صخريـة الجـدران
لـم تبـق إلا ليلـة أحيـا بهـا ... وأحـس أن ظلامهـا أكفـانى
ستمـر يـا أبتاه .. لست أشك فى ... هـذا .. وتحمـل بعدهـا جثمانى

۞۞۞

الليـل مـن حولـى هـدوء قـاتل ... والذكريـات تمـور فـى وجدانـى
ويهدنـى ألمـى فأنشـد راحتـى ... فـى بضـع آيـات مـن القـرآن
والنفـس بيـن جوانحـى شـفافة ... دب الخشـوع بهـا فهـز كيـانى
قـد عشت أومـن بالإله .. ولم أذق ... إلا أخيـراً لـذة الإيمـان

۞۞۞

شكرا لهم .. أنـا لا أريـد طعـامهم ... فلـيرفعوه فلسـت بالجوعـان
هذا الطعام المـر مـا صنعتـه لـى ... أمـى، ولا وضعـوه فـوق خوانـى
كـلا، ولـم يشـهد صحائفـه معـى ... أخـوان لـى جـاءاه يسـتبقان
مـدو إلـى بـه يـداً مصبوغة ... بدمـى، وهـذى غايـة الإحسان

۞۞۞

والصمت يقطعـه رنيـن سلاسـل ... عبثـت بهـن أصـابع السـجان
مـا بيـن آونـة تمـر وأختهـا ... يرنـو إلـى بمقلتـى شـيطان
مـن كـوة بالبـاب يرقـب صيـده ... ويعـود فـى أمـن إلـى الـدوران
أنـا لا أحـس بـأى حقـد نحـوه ... مـاذا جنـى فتمسـه أضغـانى
هـو طيـب الأخـلاق مثلـك يـا أبـى ... لـم يبـد فـى ظمـأ إلـى العـدوان
لكنـه إن نـام عنـى لحظـة .. ... ذاق العيـال مـرارة الحرمـان
فلربمـا وهـو المـروع سـحنة ... لـو كـان مثلـى شـاعراً لرثـانى

أو عـــاد ـ مــن يــدرى ـ إلى أولاده   يومـــاً، وذكـــر صــورتـــى فبكانى

۞۞۞

وعلـى الجدار الصلـب نـافذة، بهـا   معنـى الحيـاة، غليظـة القضبـان
قــد طالمـا شـارفتها متـأملا   فـى السـائرين علـى الأسـى اليقظـان
فـأرى وجومـا كالضبـاب مصـورا   مـافى قلـوب النـاس مـن غليـان
نفـس الشعـور لدى الجميع وإن همو   كتمـوا .. وكـان المـوت فى إعلان

۞۞۞

ويدور همس فى الجوانح: ما الذى   بـالثورة الحمقـاء قـد أغرانـى؟
أو لـم يكـن خـيراً لنفسـى أن أرى   مثـل الجمـوع أسـير فـى إذعـان
مـا ضرنـى لـو قـد سـكت، وكلمـا   غلـب الأسـى بـالغت فـى الكتمـان
هـذا دمـى سيسـيل يجـرى مطفئـا   مـا ثـار فـى جنبـى مـن نـيران
وفـؤادى المـوار فـى نبضاتـه   سـيكف مـن غـده عـن الخفقـان
والظلـم بـاق .. لـن يحطـم قيـده   موتـى، ولـن يـودى بـه قربـانى
ويسيـر ركـب البغى، ليس يضيره   شـاة إذا اجـتثت مـن الـقطعان

۞۞۞

هـذا حديث النفس حيث تشف عـن   بشـريتى وتمـور بعـد ثـوان
وتقـول لـى: إن الحيـاة لغايـة   أسـمى مـن التصفيـق للطغيـان
أنفاسـك الحـرى وإن هـى أخمـدت   سـتظل تغمـر أفقهـم بدخـان
وقروح جسـمك وهـو تحت سياطهم   قسـمات صبـح يتقيـه الجـانى
دمـع السـجين هنـاك فـى أغلالـه   ودم الشـهيد هنـا سـيلتقيان
حتـى إذا مـا أفعمـت بهمـا الربـا   لـم يبـق غـير تمـرد الفيضـان
ومـن العواصـف مـا يكـون هبوبهـا   بعـد الهـدوء وراحـة الربـان
إن احتـدام النـار فـى جـوف الـثرى   أمـر يثـير حفيظـة البركـان
وتتـابع القطـرات يـنزل بعـده   سـيل، يليـه تدفـق الطوفـان
فيمـوج .. يقتلـع الطغاة مـزمجراً   أقـوى مـن الجبـروت والسلطـان

أنا لست أدرى هل ستذكر قصتى أم سوف يعروها دجى النسيان
أو أننى سأكون فى تاريخنا متآمرا، أم هادم الأوثان
كل الذى أدريه أن تجرعى كأس المذلة ليس فى إمكانى
لو لم أكن فى ثورتى متطلبا غير الضياء لأمتى لكفانى
أهوى الحياة كريمة، لا قيد، لا إرهاب، لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت سقطت أحمل عزتى يغلى دم الأحرار فى شريانى

۞۞۞

أبتاه إن طلع الصباح على الدنا وأضاء نور الشمس كل مكان
واستقبل العصفور بين غصونه يوماً جديداً مشرق الألوان
وسمعت أنغام التفاؤل ثرة تجرى على فم بائع الألبان
وأتى يدق كما تعود بابنا سيدق باب السجن جلادان
وأكون بعد هنيهة متأرجحاً فى الحبل مشدوداً إلى العيدان
ليكن عزاءك أن هذا الحبل ما صنعته فى هذى الربوع يدان
نسجوه فى بلد يشع حضارة وتضاء منه مشاعل العرفان
أو هكذا زعموا، وجىء به إلى بلدى الجريح على يد الأعوان

۞۞۞

أنا لا أريدك أن تعيش محطما فى زحمة الآلام والأشجان
إن ابنك المصفود فى أغلاله قد سيق نحو الموت غير مدان
فاذكر حكايات بأيام الصبا قد قلتها لى عن هوى الأوطان

۞۞۞

وإذا سمعت نشيج أمى فى الدجى تبكى شباباً ضاع فى الريعان
وتكتم الحسرات فى أعماقها ألماً تواريه عن الجيران
فاطلب إليها الصفح عنى، إننى لا أبتغى منها سوى الغفران
مازال فى سمعى رنين حديثها ومقالها فى رحمة وحنان
أبنى: إنى قد غدوت عليلة لم يبق لى جلد على الأحزان

فـأذق فـؤادى فرحـة بـالبحث عـن بنت الحلال .. ودعك مـن عصيانى
كـــانت لهـــا أمنيـــة ريانـــة ياحســـن آمـــال لهـــا وأمـــانى
غزلت خيوط السعد مخضــلاً .. ولـم يكـن انتقـاض الغــزل فـى الحسـبان
والآن لا أدرى بـــأى جـــوانـــح ستبيـــت بعدى، أم بـــأى جنـــان

۞۞۞

هـذا الـذى سـطرته لـك يــا أبــى بعـض الـذى يجـرى بفكــر عــان
لكن إذا انتصــر الضيــاء، ومزقـت بيـد الجمـوع شـريعة القرصـان
فلسـوف يذكرنـــى، ويكــبر همتــى من كـان فـى بلـدى حليـف هـوان
وإلـى لقــاء تحــت ظـــل عدالـــة قدســـية الأحكـــام والمـــيزان

۞۞۞

فى ذكرى المولد

محمود الماحى

الليـــل أرقـــه بطـــول عذابـــه … صـب صفـاء الحـب مـلء إهابـه

الدمـــع والتتهيـــد مـــن أترابـــه … والوهـم والتسـهيد مـن أصحابـه

يفنــى كمــا تفنــى الشـــموعُ شــبابه … ويذوب حين يـذوب فـى أعصابـه

أحبابـه غـــابوا .. وطـــال غيـــابهم … هل من حديث طـاب عـن أحبابـه

بعـث الكتـاب لهـم لحـون محبـة … أتراهـم قـرأوا سـطور كتابـه؟

هـو ذلـك الصـب المـذاب صبابـة … مـل الطعـام، ومـل شـهد شـرابه

يتــأمل الأكـــوان فـــى مرآتـــه … والبيـد يغريـه بلمـع سـرابه

الكـأس بيـن يديـه شـع بريقهـا … لكـن خمـر دموعـه أحـرى بـه

وكأنمـا ثملـت رؤاه .. ولـم يـذق … إحساسـه مـا سـال مـن أعنابـه

حتـى إذا هلـت عليـه بشـائر الـ … ذكـرى وردت فيـه بعـض صوابـه

وازينـت للمولـد الأبـدى دنـ … يـاه، ودنيـا القلـب مـن أنسـابه

غلـب الهوى بـأس النوى وتبسمت … شفتـاه، لكـن ذاب فـى غـلابـه

✡✡✡

يـا سـيد الكونيـن، والثقليـن، يـا … جـد الحسـين، لقـد وقفـت ببابـه

وهتفت باسمك فى ظـلال رياضـه … ونـثرت وجـدى فـى حمـى أعتابـه

وأذبـت باسـمك كـل صعـب عنـده … ومـن ارتـوى ذابـت جميـع صعابـه

ولقـد دعيـت للاحتفـال بليلـة … نسـى الزمـان بهـا رتيـب حسـابه

فمحـوت ظنـى بـاليقين .. لعلنـى … ألقـى وجـودى بعـد طـول غيابـه

ووقفـت فـى شـبابتى مـترددا … والقلـب بيـن بقائـه وذهابـه

مـاذا أقـول؟ وموكـب الذكـرى سـرى … بيـن الوجـود يضـئ ظلـم شـعابه

بزغت كشمس لا غروب لهـا، وهـل … يخبـو الضيـاء وأنـت نـور شـهابه

مـاذا أقـول؟ وموكـب الذكـرى سـرى … بيـن الوجـود يضـئ ظلـم شـعابه

مــاذا أقــول وأيــن وحــى الخلــد جـبريل الأميـن وأيـن ســـر إيابــه
رفــت بنـــات الشعــر قبـل وقدمت أيــن العــذارى؟ أيــن مــن آدابــه؟

۞۞۞

يــا ســيدى عفــوا فلســت بصـــانع قــولا، ولسـت عليــه كفــؤ عقابــه
عــاق البيـــان لــدى أســباب لهـــا مـــا للوجــود المــر فـــى أســـبابه
مـا جـف ينبـوع الجمـال بمزهـرى أو مـات فـى القيثـار عمـر شـبابه
أبــداً وحقـــك يـــا نبـــى، وإنمـــا الإعصـار يزحـف والدجـى بركابـه
والنفــس مزقهــا الصـــراع بعــــالم لهــب الدمـــاء يســيل مــن أنيابــه
فـــاغفر إذن، أمـــا العتــاب فربمـــا يحلـو مـن المحبـوب مـر عتابـه
أنـا إن سئلت القـول فيك ولـم أجـب فرض السـؤال فـأنت نـور جوابـه
والقلــب حيــن يســر أنــت ســروره ولأنـت فـى معنـى الهـوى أدرى بـه
يـــا ســـيدى والقلــب فـــى أشــــواقه لــم تطفـئ الأحـلام نـار عذابـه
فجـر الحقيقـة لـم يـزل عبـر الـرؤى متحجبـا والـروح خلـف حجابـه
حجب الضباب ضيـاءه عـن نـاظرى وبصـيرتى وقفـت أمـام ضبابـه
إنـى دعـوت لكـى أنـال صباحـه وأعيـش مرتاحـاً بـأمن جنابـه
ولمســت أســتار الرضــا بســمائه ووطئت أرض الطهر فـوق ترابـه
وسجدت فى أرض المتاب سجود من يرجـو مـن الرحمـن حسـن متابـه
والفجـر مـا زالـت رؤاه بعيـدة لمـع السـراب يسـيل فـى أسـرابه
إنـى أرى للحـق بابـاً واحـداً وأريـد أن أمضـى لـه مـن بابـه
إنـى أريـد الفجـر فجـراً خالصـا يسـقى وجـود النـاس مـن أكوابـه
لا مسـرحا تلهـو بـه أبطالـه وتـدوس وجـه الديـن فـى ألعابـه
طـن الـذبـاب على السفوح فصفقت أيـدى البغـاث علـى طنيـن ذبـابه
وتجمـع الطـلاب حـول ريائـه باسـم الظهـور ولسـت مـن طلابـه
فمتـى يـريـد اللـه أن أمسى لـه ضيفـا يـريـح القـلب مـن أتعابـه

۞۞۞

يــا فجــر ميــلاد النبــى ابعــث لنـــا — خيطــا يضـــئ لنـــا طريـــق ثوابـــه
وصـــف الحيـــاة مــع النبـــى أبللـــت — بمدامـــع الأكـــوان مـــن غيابـــه
صـــف لـــى زحـــام المســلمين ببابـــه — وملائـــك الرحمـــات حـــول قبابـــه
أرأيـت بحــر الحــب فــى غزواتـــه — والنـــاس كـــالأمواج فـــوق عبابـــه
وســـمو حكمتــــه ومنطقـــه الـــذى — أضحـت شـعوب الأرض قيـد رحابـه
ورضـــاه يـــوم الفتـــح عـــدلا قاضيـــا — جـــبريل روح اللـــه مـــن حجابـــه
أو لـــم يكـــن للكـــون رائـــده الـــذى — يســـقى بمـــاء الحـــب قفـــر يبابـــه
أو لـــــم يكـــن ظـــل الهجير لروحـه — ومـــــرد فتـــــواه وفصـــــل خطابـه

۞۞۞

يــا فجــر ميـــلاد النبـــى أعـــد لنـــا — عهـــد الحقيقـــة فـــى دوام لبابـــه
وأعد لنـا الإيمـان من مهـد الهـوى — حتـى يطـل النـــور مــن محرابـــه
يـــا ســـيد الكونيـــن إنـــى ســـاكب — دمـــع النـــوى والنـــار فـــى تســـكابه
مـــازلت أنشـد فجـــر أيـــامى التـــى — وقـف العـــذاب لهـــا علـــى اسـتعذابه
أنـــا ذلـــك الصـــب المـــذاب صبابـــة — الدمــــع والتنهيـــد مـــــن أترابـــه
ثملـــت رؤاه علـــى شـــفا أهدابـــه — والليـــل أرقـــه بطـــول عذابـــه

۞۞۞

ذكريات المولد النبوى

حامد طاهر

شرف إذا أنشدت تحت لوائه ... ومنى أحققها بفضل رضائه
وخواطر تسمو إذا ما لامست ... أعتاب روضته، وطرف ردائه
يا سيدى .. والذكريات كثيرة ... يهفو لها الظمآن فى صحرائه
أنا ما قصدتك شاعراً بمديحه ... لكن قصدتك عاشقا بصفائه
تتعثر الكلمات فوق لسانه ... والشوق مستعر بكل دمائه
وكذا المحب إذا طغت برحاؤه ... لم يدر كيف يبين عن برحائه
إن قال أعياه البيان، وإن شكا ... جرت الدموع، فخففت من دائه
فاقبل دموعى يا رسول، ولا تدع ... قلبى الضعيف معلقا برجائه
تتجاذب الأرض الخراب ربيعه ... وتشده الدنيا إلى أهوائه
مازال فى البستان بعد .. بقية ... تترقب الفجر الندى بمائه
فامنح ظماها من غديرك قطرة ... فلربما ازدهرت على إروائه

۞۞۞

يا يوم ميلاد الرسول .. تحية ... والكون محتفل بكل روائه
يتنسم الذكرى الحبيبة، كالذى ... يهفو إلى المصباح فى ظلمائه
يوم تبسمت الربى لصباحه ... وتمايلت بالبشر عند مسائه
وازينت هذى الحياة لمولد ... فاضت بشائر خيره وعطائه
الله باركه فأطلع شمسه ... فى ليلة، ضاءت بنور سنائه
وسرت إلى أرض الحجاز ملائك ... تزجى أباريق الهدى لنقائه
وتضم أطهر قادم بجناحها ... ليضم كل الكون فى أحنائه

۞۞۞

أوليس هذا الطفل يوم خروجه ... للكون أخرجه إلى إحيائه
فتحطمت شرفات كسرى وانطوى ... ذاك البناء الضخم من أبهائه

ولهيب فارس أخمدت نيرانه ... ما كان إلا شاهداً بفنائه
والجن من بعد الصعود إلى السما ... يتسقطون السر من أمنائه
قذفت بأسواط، يئز لهيبها ... فى ظهر من يغريه وهم شقائه
هى حكمة الرحمن، حتى يزدهى ... فجر الوجود على دجى ظلمائه
فيزيل أسباب العداوة والهوى ... ليسيل نهر الحب فى غبرائه
يروى قلوب الظامئين محبة ... ويبث فيها الخير من أندائه
ما كان هذا مولدا، بل مشرقاً ... طلعت على الدنيا فيوض سنائه

۞۞۞

ولد المحمد بالمحامد كلها ... ختم النبوة كان من آلائه
حمل المراضع غيره، وحليمة ... حملته محفوفاً بكل بهائه
البشر فى قسماته، والخصب فى ... خطواته، والخير قيد بقائه
وعلى الرمال تلقفته ملائك ... نزلت بأمر الله من عليائه
فتحت له الصدر الكريم، وطهرت ... قلباً يفيض النور من لألائه

۞۞۞

أضحى أمين القوم منذ شبابه ... ومطهر النزعات فى قرنائه
مادق باب اللهو مثل رفاقه ... كلا، ولا أصغى إلى إغرائه
يرعى الشياه لكى يرق فؤاده ... ويحس أصل الداء فى عجمائه
فغدا سيرعى الناس، يرعى أمة ... تخطو إلى بر الهدى بلوائه
سائل حراء يجبك عن خلواته ... وقيامه لله تحت سمائه
وهجوده الليل الطويل مفكرا ... صوت السماء يرن فى أحنائه
ما كان أطهره نبيا هاديا ... الله كرمه بحسن ولائه
وافاه جبريل الأمين، يزف بشرى ... الوحى، مزدانا بكل روائه
"اقرأ.." وأخلدت الفيافى للصدى ... تتلقف الإلهام من إلقائه
الأرض ظمأى، والربوع جديبة ... والعقل منكفئ على أهوائه

حتى الحضارات اغتصاب جماعة ... عرق الورى، تمتص من أدوائه
كسرى هو الرب الكبير لفارس ... يتقدم القربان فى إرضائه
والقيصر المزهو يحكم شعبه ... بالنار، والتقديس من أسمائه
يا ثورة العقل الأسير .. تفجرى ... فالليل ممتد على بؤسائه
طلع الرسول على الصفا، كلماته ... الخضراء رايات على أرجائه
تنداح فى الآفاق فيض هدايه ... وتعيد للإنسان فجر صفائه

۞۞۞

أواه يا دنيا العمى، ما باله ... غشى العيون، ولج فى غلوائه
فقريش تعرفه الأمين، وإنما ... من للغواية فى كيان التائه
سخروا، وقالوا: إنما هو ساحر ... بل قد رموه بالجنون ودائه
ياسيدى، روحى فداك وأنت فى ... هذا الظلام ترد زحف غبائه
فتقول والدنيا يحركها الهوى ... ويسوقها الشيطان فى إغوائه
والله لو وضعوا الشموس براحتى ... وأتوا بهذا البدر من عليائه
ما أسكتوا صوت الرسالة فى فمى ... أو يحتوينى الموت فى أشلائه
هذا الكفاح ولم نكن ندرى به ... حتى أتيت فصغت نسج لوائه
وجلوته للناس أروع صفحة ... يسمو على الأيام صرح إبائه
فلتسمع الدنيا حديثك، وليفق ... هذا الوجود من اختناق هوائه

۞۞۞

المعجزات شواهد محسوسة ... للجاحدين النور من أعدائه
البدر منشق، وحبات الحصى ... متكلمات، والغمام بمائه
والجذع من فيض الحنين تمايلت ... أعطافه، وشكا إليك بدائه
والشاة أنطقها الذى فى ملكه ... يحميك من سم الردى وبلائه
يا دوحة القرآن .. ظلك وارف ... ولأنت فاتحة الهدى وعطائه
ماذا يزف لك البيان وصوته ... فى الأرض، والإغضاء ملء ردائه

إنــى لأعجب مــن نواميـس الــورى | يتفنـــن الإنســـان فـــى آرائــــه
والحـق فــى القــرآن شـمس هدايــة | لا تختفــى مــن صبحــه ومســائه
أو مـــا تحـــرك بالحيـــاة فهزهـــا | بعـد الممــات، ومــد مــن فيحائــه
انظر لأعراب الصحـارى، أصبحوا | أمــراء هــذا الكـون باســتهدائه
أسـبانيا والصيـــن شــطا ملكهــم | فــاعجب لملـك ضــاع مـن أمرائــه
تركــوا يــد القــرآن بعــد صداقــة | وغــدوا بـليل الضعف مـن غربائه

۞۞۞

يـــا ســـيدى، والذكريـــات كثـــيرة | يهفـو لهـا الظمـآن فــى صحرائــه
امـــدد يديـــك لعـــالم متمـــزق | الخــوف أخرســه، وغــص بدائــه
يبـدو لعينيــه الــردى مــن صنعــه | وتضـــج بالإلحـــاد كـــل دمائــه
مهمـــا تفنـــن فالضيـــاع بصـــدره | مــر، يكــدر منــه نهــر صفائــه
إيمانـــه بـــاللـــه ســـر سعـــوده | مـــا بالـــه ينكـــب نحــو شقائــه

۞۞۞

يـا ذكريـات المولـد النبـوى معـذرة | إذا أبعـــدت عـــن إيحائـــه
فجـأرت بالشـكوى، وثــرت بعــالم | نهــم، يمــور الحقـد فــى أنحائــه
مــاتـت أغـــانيـــه، وجــف غديره | وأراه يسعـــى قـــاصـــداً لفنـــائــه

۞۞۞

يــا سـيدى، وأنـــا الضعيـف بليلـه | أتنســـم الإشــــراق مـــن ظلمائــه
قلبــى يحـدث بــالدموع، وخــاطرى | بذنوبـــه يدعـــوك صـــوت حدائــه
رفقـــاً بـــه، فلربمـــا عـــادت لـــه | نسـمات راحتــه وصفـــو هنائــه
فتنفـــس الفجـــر الكبـــير هدايـــة | وروى الظمـا مـن أرضـه وسـمائه

۞۞۞

معزوفة درويش متجول

محمد الفيتوري

شحبت روحى، صارت شفقا
شعت غيما، وسنا
كالدرويش المتعلق فى قدمى مولاه .. أنا
أتمرغ فى شجنى
أتوهج فى بدنى
غيرى أعمى .. مهما أصغى لن يبصرنى
فأنا جسد، حجر،
شئ عبر الشارع
جزر غرقى فى قاع البحر،
حريق فى الزمن الضائع
قنديل زيتى مبهوت
فى أقصى بيت .. فى بيروت
أتألق حينا، ثم أرنّق، ثم أموت

۞۞۞

ويحى .. وأنا أتلعثم نحوك يا مولاى
أجسد أحزانى، أتجرد فيك
يدك الممدودة .. أم يدى الممدودة؟
صوتك أم صوتى؟
تبكينى أم أبكيك؟

۞۞۞

فى حضرة من أهوى،
عبثت بى الأشواقْ

حدقت بلا وجه،
ورقصت بلا ساق
وزحمت براياتى وطبولى .. الآفاق
عشقى يفنى عشقى،
وفنائى استغراق
مملوكك ..
لكنى سلطان العشاقْ !!

۞۞۞

الحلاج يدافع عن نفسه

صلاح عبدالصبور

[من مسرحيته الشعرية مأساة الحلاج ..]

أنا رجل من غمار الموالى، فقير الأرومة والمنبت
فلا حسبى ينتمى للسماء، ولا رفعتنى لها ثروتى
ولدت كآلاف من يولدون، بآلاف أيام هذا الوجود
لأن فقيراً ـ بذات مساء ـ سعى نحو حضن فقيره
وأطفأ فيه مرارة أيامه القاسية
نموت كآلاف من يكبرون،
حين يقتاتون خبر الشموس ..
ويسقون ماء المطر
وتلقاهم صبية يافعين حزانى على الطرقات الحزينة
فتعجب كيف نموا واستطالوا، وشبت خطاهم
وهذى الحياة ضنية

۞۞۞

تسكعت فى طرقات الحياة، دخلت سراديبها الموحشات
حجبت بكفى لهيب الظهيرة فى الفلوات
وأشعلت عينى، دليلى، أنيسى فى الظلمات
وذوبت عقلى، وزيت المصابيح، شمس النهار على صفحات الكتب
لهثت وراء العلوم سنين، ككلب يشم روائح صيد
فيتبعها، ثم يحتال حتى ينال سبيلاً إليها، فيركض، ينقض
فلم يسعد العلم قلبى، بل زادنى حيرة واجفه
بكيت لها وارتجفت
وأحسست أنى وحيد ضئيل كقطرة طل
كحبة رمل

ومنكسر تعس خائف مرتعد
فعلمى ما قادنى قط للمعرفة
وهبنى عرفت تضاريس هذا الوجود
مدائنه، وقراه
ووديانه، وذراه
وتاريخ أملاكه الأقدمين
وآثار أملاكه المحدثين
فكيف بعرفان سر الوجود، ومقصده، مبتدا أمره، منتهاه

۞۞۞

لكى يرفع الخوف عنى، خوف المنون، وخوف الحياة، وخوف القدر
لكى أطمئن
سألت الشيوخ، فقيل:
تقرب إلى الله، صلّ ليرفع عنك الضلال ..
صل لتسعد
وكنت نسيت الصلاة، فصليت لله رب المنون، ورب الحياة
ورب القدر.
وكان هواء المخافة يصفر فى أعظمى ويئز كريح الفلا ..
وأنا ساجد راكع أتعبد
فأدركت أنى أعبد خوفى، لا الله ..
كنت به مشركاً لا موحد
وكان إلهى خوفى

۞۞۞

وصليت أطمع فى جنته
ليختال فى مقلتى خيال القصور ذوات القباب

وأسمع وسوسة الحلى، همس حرير الثياب
وأحسست أنى أبيع صلاتى إلى الله ..
فلو أتقنت صنعة الصلوات لزاد الثمن
وكنت به مشركاً، لا موحد
وكان إلهى الطمع

۞۞۞

وحير قلبى سؤال:
ترى قدر الشرك للكائنات
وإلا، فكيف أصلى له وحده
وأخلى فؤادى مما عداه
لكى أنزع الخوف عن خاطرى
لكى أطمئن ..
كما يلتقى الشوق شوق الصحارى العطاش بشوق السحاب السخى
كذلك كان لقائى بشيخى
أبى العاص عمرو بن أحمد، قدس تربته ربه
وجمعنا الحب، كنت أحب السؤال، وكان يحب النوال
ويعطى، فيبتل صخر الفؤاد
ويعطى، فتندى العروق ويلمع فيها اليقين
ويعطى، فيخضر غصنى
ويعطى، فيزهر نطقى وظنى
ويخلع عنى ثيابى، ويلبسنى خرقة العارفين
يقول هو الحب، سر النجاة، تعشق تفز
وتفنى بذات حبيبك، تصبح أنت المصلى، وأنت الصلاة
وأنت الديانة والرب والمسجد

تعشقت حتى عشقت، تخيلت حتى رأيت
رأيت حبيبى، وأتحفنى بكمال الجمال، جمال الكمال
فأتحفته بكمال المحبة
وأفنيت نفسى فيه

۞۞۞

بائعة اليانصيب

محمد العزب

.. وتضحك لى .. وفى أعماق عينيها أسى يبكى
تبيع اليانصيب .. وعن مآسى ليلها تحكى
وعمر شبابها عشرون .. غافية على الشوك
بنفسجة خريف العمر شردها عن الأيك

۞۞۞

تمزق ثوبها المذعور عن صدر بلا ثمر
وباح نهار عينيها بكل قساوة المطر
وولول فى ابتسامها ربيع ذابل الشجر
وشرد خطوها الإعصار فى ليل بلا قمر

۞۞۞

مشت فى الدرب حافية يقئ خيالها الدرب!
وياكم نام فى يدها .. وفوق ذراعها .. حب
ومات .. فليس للطاوين فى أوهامنا قلب
دمى .. صخرية الأشواق لا تهفو .. ولا تصبو

۞۞۞

تبيع "اليانصيب" ولا نصيب لها .. وتنطلق
وتوشك أن تبيع سواه راغمة وتحترق
فخلف جدار بسمتها يصيح الجوع .. والأرق
وتبكى قصة بيضاء خط سطورها العرق

۞۞۞

خطاها عبر ليل التيه تسرقها وترديها
وتوشك أن تضل به .. وتطمس كل ماضيها

ونمضى نحن نلعنها .. ونصفع وجهها تيها
وننسى أنها جاعت .. وضاعت فى لياليها

۞۞۞

هنا كل الدروب السود تعرف ظلها السارى
تضيق بخطوها المذعور يصفع صمتها الضارى
فكم طافت هنا حيرى .. بلا أهل .. ولا دار
وكم رسمت على الجدران ظل ضياعها العارى

۞۞۞

وياكم جن فى فمها سؤال عاش يضنيها:
ترى أين التى ستفوز؟ إن سعادتى فيها
ويعييها الجواب .. فتلقف الأوراق تحصيها
وتمضى للطريق الجهم .. تطويه .. ويطويها

۞۞۞

وكم باتت تناجى الليل .. أطيافا .. وأشباحا
وتسأل: من أنا؟ مالى أبيع الناس أفراحا
وأغفو عبر ملحمة الضياع دجى .. وإصباحا
وأحيا فى خريف التيه أغصانا .. وأدواحا

۞۞۞

وتبكى .. إنها إنسانة تبكى .. وتبتسم
رباب رغم هول الريح لم يصمت به النغم
وأنثى أرهفت إحساسها الأرزاء والنقم
وأرهف ما يكون الحس .. حين يهزه الألم

۞۞۞

هنا .. ياكم هنا أغفت مدثرة .. ومقرورة

هنا تحيا لها فى كل درب غائم صورة
هنا تجثو وراء الظل والظلمات أسطورة
هنا ياكم لها قصص هنا فى الحى مشهورة

۞۞۞

مشت يوما ممزقة الصباح يرجها القلق
وعربد حولها الإعصار .. طار برغمها الورق
تخطفه الصغار هناك .. وهى تصيح .. تختنق؟
رويد جنونكم .. إنى من الأوراق أرتزق

۞۞۞

ويوماً أرق الجوع الرهيب مساءها الكابى
فدقت فى أسى خزيان يرعشه الدجى .. بابى
وقمت أطل .. فاستضرى بها كلبى .. وبوابى
عدت ظمآنة .. جوعى .. تعانق ليلها الخابى

۞۞۞

ويا ما عفرت باللوم وجه الآدميينا
ويا ما أجهشت بالدمع تستجدى المصلينا
وباسم الدين .. والديان .. كم ناجت غبيينا
فما أجدى البكاء هناك .. لا قمحا .. ولا تينا

۞۞۞

(ب) من النثر

قرآن الفجر

مصطفى صادق الرافعى

(كتبها قبل وفاته بثلاثة أشهر..)

كنت فى العاشرة مـن سنـى، وقـد جمعـت القـرآن كلـه حفظـاً وجودتـه بأحكـام القراءة، ونحن يومئذ فى مدينة دمنهور، عاصمـة البحـيرة، وكـان أبـى رحمـه اللـه كبير القضاة الشرعيين فى هذا الإقليم، ومن عادته أنه كان يعتكف كل سنة فى أحـد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان، يدخل المسجد فلا يبرحـه إلا ليلـة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم، فهناك يتأمل ويتعبد ويتصـل بمعنـاه الحـق، وينظـر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويطـل علـى الدنيـا إطـلال الواقـف علـى الأيـام السـائرة، ويغير الحياة فـى عملـه وفكـره، ويهجـر تـراب الأرض فـلا يمشـى عليـه، وتـراب المعانى الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل فى الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر فى المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لاتتغـير؛ ثـم لايـرى مـن النـاس إلا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء، المدعو إلى دخول المسجد بدعوة القوة السـامية، المنحنى فى ركوعه ليخضع لغير المعانى الذليلة، الساجد بين يدى ربـه ليـدرك معنـى الجلال الأعظم.

وما هى حكمة هذه الأمكنة التى تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنـة قائمـة فـى الحيـاة، تشعر القلب البشرى فى نزاع الدنيا أنه فى إنسان لا فى بهيمة..

وذهبت ليلة فبت عند أبى فى المسجد؛ فلما كنا فى جوف الليل الأخير أيقظنـى للسحور، ثم أمرنى فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته، فلما كان السـحر الأعلى هتف بالدعاء المأثور: اللهم لـك الحمـد، أنـت نور السموات والأرض، ولـك الحمد، أنت بهاء السموات والأرض، ولـك الحمـد، أنـت زيـن السـموات والأرض، ولك الحمد، أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحـق ومنـك الحق.. إلى آخر الدعاء.

وأقبل الناس ينتابون المسجد، فانحدرنـا مـن تلـك العليـة التـى يسـمونها الدكـة، وجلسنا ننتظر الصلاة. وكانت المساجد فى ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت، فى كل

قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلاً يبص بصيصاً كأنه بعض معانى الضوء لا الضوء نفسه، فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها، تلوح كأنها شقوق مضيئة فى الجو، فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسراره الجميلة، وتبدو فى الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يومئ إليه ولا يبينه، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد فى ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سر يشف عن سر..

وكان لها منظر كمنظر النجوم يتم جمال الليل بإلقائه الشعل فى أطرافه العليا، وإلباس الظلام زينته النورانية، فكان الجالس فى المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة، ويحس فى المكان بقايا أحلام، ويسرى حوله ذلك المجهول الذى سيخرج منه الغد، وفى هذا الظلام النورانى تتكشف له أعماقه منسكباً فيها روح المسجد، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقدر هادئاً وداعياً، راجعاً إلى نفسه، مجتمعاً فى حواسه، منفرداً بصفاته، منعكساً عليه نور قلبه، كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض.

ثم يشعر بالفجر فى ذلك الغبش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء، شعوراً ندياً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه لينتضر من يبس، ويرق من غلظة. وكأنما جاءوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة، مفتتحاً بالجمال، فإذا كان شاعر النفسر التقى فيه النور السماوى بالنور الإنسانى فإذا هو يتلألأ فى روحه تحت الفجر..

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن فى جو المسجد، والقناديل معلقة كالنجوم فى مناطها من الفلك، وتلك السرج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب، والناس جالسون عليهم وقار أرواحهم، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه، وقد استبهمت الأشياء فى نظر العين ليلبسها الإحساس الروحانى فى النفس، فيكون لكل شيء معناه الذى هو منه ومعناه الذى ليس منه، فيخلق فيه الجمال الشعرى كما يخلق للنظر المتخيل..

لا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث فى جو المسجد صوت غرد رخيم، يشق سدفة الليل فى مثل رنين الجرس تحت الأفق العالى، وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا

عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

وكان هذا القارئ يملك صوته أتم مايملك ذو الصوت المطرب؛ فكان يتصرف به أحلى مما يتصرف القمرى وهو ينوح فى أنغامه، وبلغ فى التطريب كل مبلغ يقدر عليه القادر، حتى لاتفسر اللذة الموسيقية بأبدع مما فسرها هذا الصوت، وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها فى جمال القمر، فاهتز يجاوبها بأسلوبه فى جمال التغريد.

كان صوته على ترتيب عجيب فى نغماته؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة، ويضطرب اضطراباً روحانيا كالحزن اعتراه الفرح على فجأة، يصيح الصيحة تترجح فى الجو وفى النفس، وتتردد فى المكان وفى القلب، ويتحول بها الكلام الإلهى إلى شىء حقيقى، يلمس الروح فيرفض عليها بمثل الندى، فإذا هى ترف رفيفاً، وإذا هى كالزهرة التى مسحها الطل.

وسمعنا القرآن غضاً طرياً كأول مانزل به الوحى، فكان هذا الصوت الجميل يدور فى نفس كأنه بعض السر الذى يدور فى نظام العالم، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه.

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى فى كلامه، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضىئ من هذا النور!

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التى فى الخارج من المسجد وبطل باطلها، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة، وهذه هى معجزة الروح متى كان الإنسان فى لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية.

أما الطفل الذى كان فىّ يومئذ فكأنما دعى بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذى يجىء فيه من بعد، فأنا فى كل حالة أخضع لهذا الصوت: ادع إلى سبيل ربك؛ وأنا فى كل ضائقة أخشع لهذا الصوت: واصبر وما صبرك إلا بالله!

۞۞۞

اليمامتان

مصطفى صادق الرافعى

جاء فى تاريخ الواقدى

" أن المقوقس عظيم القبط فى مصر، زوج بنته أرمانوسة من قسطنطين بن هرقل، وجهزها بأموالها وحشمها لتسير إليه، حتى يبنى عليها فى مدينة قيسارية، فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها .. وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً، وقاتل من بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس، وانهزم من بقى إلى المقوقس، وأخذت أرمانوسة وجميع مالها، وأخذ كل ماكان للقبط فى بلبيس؛ فأحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسير إليه ابنته مكرمة فى جميع مالها، مع قيس ابن أبى العاص السهمى، فسر بقدومها.."

هذا ما أثبته الواقدى فى روايته، ولم يكن معنياً إلا بأخبار المغازى والفتوح، فكان يقتصر عليها فى الرواية. أما ما أغفله فهو مانقصه نحن:

كانت لأرمانوسة وصيفة مولدة تسمى مارية، ذات جمال يونانى أتمته مصر ومسحته بسحرها، فزاد جمالها على أن يكون مصرياً، ونقص الجمال اليونانى أن يكونه، فهو أجمل منهما. ولمصر طبيعة خاصة فى الحسن، فهى قد تهمل شيئاً فى جمال نسائها، أو تشعث منه، وقد لاتوفيه جهد محاسنها الرائعة، ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع إلى أصل أجنبى، أفرغت فيه سحرها إفراغا، وأبت إلا أن تكون الغالبة عليه، وجعلته آيتها فى المقابلة بينه فى طابعه المصرى، وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنة ما كانت، تغار على سحرها أن يكون إلا الأعلى!

وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدين والعقل، اتخذها المقوقس كنيسة حية لابنته، وهو كان والياً وبطريركا على مصر من قبل هرقل؛ وكان من عجائب صنع الله أن الفتح الإسلامى جاء فى عهده، فجعل الله قلب هذا الرجل مفتاح القفل القبطى، فلم تكن أبوابها تدافع إلا بمقدار ما تدفع: تقاتل شيئاً من قتال غير كبير، أما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة حصينة لاتذعن إلا للتحطيم، ووراءها نحو مائة ألف رومى يقاتلون المعجزة الإسلامية التى جاءتهم من بلاد العرب أول ماجاءت فى أربعة آلاف رجل، ثم لم يزيدوا آخر مازادوا على اثنى عشر ألفا. وكان الروم

مائة ألف مقاتل بأسلحتهم، ولم تكن المدافع معروفة، ولكن روح الإسلام جعلت الجيش العربى كأنه اثنا عشر ألف مدفع بقنابلها، لا يقاتلون بقوة الإنسان، بل بقوة الروح الدينية التى جعلها الإسلام مادة متفجرة تشبه الديناميت قبل أن يعرف الديناميت!

ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس، جزعت مارية جزعاً شديداً إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قوم جياع، ينفضهم الجدب على البلاد نفض الرمال على الأعين فى الريح العاصف، وأنهم جراد إنسانى لايغزو إلا لبطنه، وأنهم غلاظ الأكباد كالإبل التى يمتطونها، وأن النساء عندهم كالدواب يرتبطن على خسف، وأنهم لاعهد لهم ولا وفاء، ثقلت مطامعهم، وخفت أماناتهم؛ وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزارا فى الجاهلية، فما تدعه روح الجزار ولاطبيعته، وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشذاذهم، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش.

وتوهمت مارية أوهامها، وكانت شاعرة قد درست هى وأرمانوسة أدب يونان وفلسفتهم، وكان لها خيال مشبوب متوقد يشعرها كل عاطفة أكبر مما هى، ويضاعف الأشياء فى نفسها، وينزع إلى طبيعته المؤنثة، فيبالغ فى تهويل الحزن خاصة، ويجعل من بعض الألفاظ وقودا على الدم..

ومن ذلك استطير قلب مارية وأفزعتها الوساوس، فجعلت تندب نفسها، ووصنعت فى ذلك شعراً هذه ترجمته:

" جاءك أربعة آلاف جزار أيتها الشاة المسكينة؟

" ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تذبحى؟

" جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة؟

" ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت!

" قونى ياإلهى، لأغمد فى صدرى سكينا يرد عنى الجزارين!

" يا إلهى قو هذه العذراء لتتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربى.."



وذهبت تتلو شعرها على أرمانوسة فى صوت حزين يتوجع، فضحكت هذه وقالت: أنت واهمة يا مارية؛ أنسيت أن أبى قد أهدى إلى نبيهم بنت (أنصنا) فكانت عنده فى مملكة بعضها السماء وبعضها القلب؟ لقد أخبرنى أبى أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبى، وأنها أنفذت إليه دسيساً يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذى سيضع فى العالم تمييزه بين الحق والباطل، وأن نبيهم أطهر من السحابة فى سمائها، وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله، لا من حدود أنفسهم وشهواتها، وإذا سلوا السيف سلوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون. وقالت عن النساء: لأن تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبى؛ فإنهم جميعاً فى واجبات القلب وواجبات العقل، ويكاد الضمير الإسلامى فى الرجل منهم يكون حاملاً سلاحاً يضرب صاحبه إذا هم بمخالفته.

وقال أبى: إنهم لايغيرون على الأمم، ولايحاربونها حرب الملك؛ وإنما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة، تتقدم فى الدنيا حاملة السلاح والأخلاق، قوية فى ظاهرها وباطنها، فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم؛ وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق.

وقال أبى: إن هذا الدين يندفع بأخلاقه فى العالم اندفاع العصارة الحية فى الشجرة الجرداء: طبيعة تعمل فى طبيعة، فليس يمضى غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمى ظلالها؛ وهو بذلك فوق السياسات التى تشبه فى عملها الظاهر الملفق ما يعد كطلاء الشجرة الميتة الجرداء بلون أخضر.. شتان بين عمل وعمل، وإن كان لون يشبه لونا..

فاستروحت مارية واطمأنت باطمئنان أرمانوسة، وقالت: فلا ضير علينا إذا فتحوا البلد، ولا يكون ما نستضر به؟

قالت أرمانوسة: لاضير يامارية، ولايكون إلا ما نحب لأنفسنا؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم، يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص عليه، والحاجة إلى حلاله وحرامه، فهم القساة الغلاظ المستكلبون كالبهائم؛ ولكنهم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الاستغناء عنه، والتمييز بين حلاله وحرامه، فهم الإنسانيون الرحماء المتعففون.

قالت مارية: وأبيك يا أرمانوسة إن هذا لعجيب! فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التى كتبوها.. فلم يخرجوا للدنيا جماعة تامة الإنسانية، فضلا عن أمة كما وصفت أنت من أمر المسلمين؛ فكيف استطاع نبيهم أن يخرج هذه الأمة، وهم يقولون إنه كان أمياً؟ أفتسخر الحقيقة من كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير، فتدعهم يعملون عبثاً أو كالعبث، ثم تستسلم للرجل الأمى الذى لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم؟

قالت أرمانوسة: إن العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلاكها، ليسوا هم الذين يشقون الفجر ويطلعون الشمس، وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعية بفطرتها، يكون عملها فى الحياة إيجاد الأفكار العملية الصحيحة التى يسير بها العالم، وقد درست المسيح وعمله وزمنه فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة، غير أنه أوجدها مصغرة فى نفسه وحوارييه، وكان عمله كالبدء فى تحقيق الشىء العسير: حسبه أن يثبت معنى الإمكان فيه.

وظهور الحقيقة من هذا الرجل الأمى، هو تنبيه الحقيقة إلى نفسها، وبرهانها القاطع أنها بذلك فى مظهرها الإلهى؛ والعجيب يامارية، أن هذا النبى قد خذله قومه وناكروه وأجمعوا على خلافه، فكان فى ذلك كالمسيح، غير أن المسيح انتهى عند ذلك، أما هذا فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع: لايرتد ولا يتغير؛ وهاجر من بلده، فكان ذلك أول خطى الحقيقة التى أعلنت أنها ستمشى فى الدنيا، وقد أخذت من يومئذ تمشى..

ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلها لما جرت به كذلك؛ فهذا فرق آخر بينهما.

والفرق الثالث أن المسيح لم يأت إلا بعبادة واحدة، هى عبادة القلب؛ أما هذا الدين فعلمت من أبى أنه ثلاث عبادات يشد بعضها بعضا: إحداها للأعضاء، والثانية للقلب، والثالثة للنفس؛ فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط، وعبادة القلب طهارته وحبه الخير؛ وعبادة النفس طهارتها وبذلها فى سبيل الإنسانية؛ وعند أبى أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا، فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجنابين وأسعدهما.

قالت مارية: إن هذا والله لسر إلهى يدل على نفسه، فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعث نفسه فيها عمياء: كالغضب الأعمى، والحب الأعمى، والتكبر الأعمى؛ فإذا كانت هذه الأمة الإسلامية كما قلت منبعثة هذا الانبعاث، ليس فيها إلا الشعور بذاتيتها العالية، فما بعد ذلك دليل على أن هذا الدين هو شعور الإنسان بسمو ذاتيته، وهذه هى نهاية النهايات فى الفلسفة والحكمة.

قالت أرمانوسة: وما بعد ذلك دليل على أنك تتهيئين أن تكونى مسلمة يا مارية..!

فاستضحكتا معاً، وقالت مارية: أنما ألقيت كلاما، جاريتك فيه بحسبه، فأنا وأنت فكرتان، لامسلمتان.

۞۞۞

قال الراوى: وانهزم الروم عن بلبيس، وارتدوا إلى المقوقس فى منف، وكان وحى أرمانوسة فى مارية مدة الحصار – وهى نحو الشهر – كأنه فكر سكن فكراً وتمدد فيه؛ فقد مر ذلك الكلام بما فى عقلها من حقائق النظر فى الأدب والفلسفة، فصنع ما يصنع المؤلف بكتاب ينقحه، وأنشأ لها أخيلة تجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح، والمؤكد لأنه مؤكد.

ومن طبيعة الكلام إذا أثر فى النفس، أن ينتظم فى مثل الحقائق الصغيرة التى تلقى للحفظ ؛ فكان كلام أرمانوسة فى عقل مارية هكذا:

"المسيح بدء وللبدء تكملة، مامن ذلك بد"

"لاتكون خدمة الإنسانية إلا بذات عالية لاتبالى غير سموها"

"الأمة التى تبذل كل شىء وتستمسك بالحياة جبناً وحرصاً، لاتأخذ شيئاً؛ والتى تبذل أرواحها، تأخذ كل شىء".

وجعلت هذه الحقائق الإسلامية وأمثالها تعرب هذا العقل اليونانى، فلما أراد عمرو بن العاص توجيه أرمانوسة إلى أبيها، وانتهى ذلك إلى مارية، قالت لها: لايجمل بمن كانت مثلك فى شرفها وعقلها أن تكون كالأخيذة، تتوجه حيث يسار بها، والرأى أن تبدئى هذا القائد قبل أن يبدأك؛ فأرسلى إليه فأعلميه أنك راجعة إلى

أبيك، واساليه أن يصحبك بعض رجاله؛ فتكونى الآمرة حتى فى الأسر، وتصنعى صنع بنات الملوك!

قالت أرمانوسة: فلا أجد لذلك خيراً منك فى لسانك ودهائك، فاذهبى إليه من قبلى، وسيصحبك الراهب (شطا)، وخذى معك كوكبة من فرساننا.

۞۞۞

قالت مارية وهى تقص على سيدتها:

لقد أديت إليه رسالتك فقال: كيف ظنها بنا؟ قلت: ظنها بفعل رجل كريم يأمره اثنان: كرمه، ودينه. فقال: أبلغيها أن نبينا صلى الله عليه وسلم، قال: "استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم صهرا وذمة" وأعلميها أننا لسنا على غارة نغيرها، بل على نفوس نغيّرها.

قالت: فصفيه لى يامارية.

قالت: كان آتيا فى جماعة من فرسانه على خيولهم العراب، كأنها شياطين تحمل شياطين من جنس آخر، فلما صار بحيث أتبينه أومأ إليه الترجمان — وهو وردان مولاه — فنظرت، فإذا هو على فرس كميت أحم لم يخلص للأسود ولا للأحمر، طويل العنق مشرف له ذؤابة أعلى ناصيته كطرة المرأة، ذيال يتختر بفارسه ويحمحم كأنه يريد أن يتكلم، مطهم..

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت: ماسألتك صفة جواده..

قالت مارية: أما سلاحه..

قالت: ولا سلاحه، صفيه كيف رأيته: هو ..!

قالت: رأيته قصير القامة، علامة قوة وصلابة؛ وافر الهامة، علامة عقل وإرادة، أدعج العينين..

فضحكت أرمانوسة وقالت: علامة ماذا؟..

.. أبلج يشرق وجهه كأن فيه لألاء الذهب على الضوء، أيدا اجتمعت فيه القوة حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمراً .. داهية كتب دهاؤه على جبهته العريضة

يجعل فيها معنى يأخذ من يراه؛ وكلما حاولت أن أتفرس فى وجهه رأيت وجهاً لايفسره إلا تكرار النظر إليه.

وتضرجت وجنتاها، فكان ذلك حديثا بينها وبين عينى أرمانوسة..

وقالت هذه: كذلك كل لذة لايفسرها للنفس إلا تكرارها..

فغضت مارية من طرفها وقالت: هو والله ماوصفت، وإنى ما ملأت عينى منه، وقد كدت أنكر أنه إنسان لما اعترانى من هيبته..

قالت أرمانوسة: من هيبته أم من عينيه الدعجاوين..!

ورجعت بنت المقوقس إلى أبيها فى صحبة قيس، فلما كانوا فى الطريق وجبت الظهر، فنزل قيس يصلى بمن معه، والفتاتان تنظران؛ فلما صاحوا: "الله أكبر.." ارتعش قلب مارية، وسألت الراهب شطا: ماذا يقولون؟ قال إن هذه كلمة يدخلون بها صلاتهم، كأنما يخاطبون بها الزمن أنهم الساعة فى وقت ليس منه ولا من دنياهم، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدى من هو أكبر من الوجود؛ فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت، فذلك هو دخولهم فى الصلاة؛ كأنهم يمحون الدنيا من النفس ساعة أو بعض ساعة، ومحوها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها؛ انظرى، ألا ترين هذه الكلمة قد سحرتهم سحراً، فهم لا يتلفون فى صلاتهم إلى شيء، وقد شملتهم السكينة ورجعلوا غير من كانوا، وخشعوا خشوع أعظم الفلاسفة فى تأملهم؟

قالت ماريا: ما أجمل هذه الفطرة الفلسفية! لقد تعبت الكتب لتجعل أهل الدنيا يستقرون ساعة فى سكينة الله عليهم، فما أفلحت؛ وجاءت الكنيسة فهولت على المصلين بالزخارف والصور والتماثيل والألوان، لتوحى إلى نفوسهم ضربا من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الدينى، وهى بذلك تحتال فى نقلهم من جوهم إلى جوها؛ فكانت كساقى الخمر: إن لم يعطك الخمر عجز عن إعطائك النشوة؛ ومن ذا الذى يستطيع أن يحمل معه كنيسة على جواد أو حمار؟

قالت أرمانوسة: نعم إن الكنيسة كالحديقة؛ هى حديقة فى مكانها، وقلما توحى شيئاً إلا فى موضعها، فالكنيسة هى الجدران الأربعة؛ أما هؤلاء فمعبدهم بين جهات الأرض الأربع.

قال الراهب شطا: ولكن هؤلاء المسلمين متى فتحت عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها، فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاة يومئذ.

قالت مارية: وهل تفتح عليهم الدنيا؛ وهل لهم قواد كثيرون كعمرو..؟

قال: كيف لاتفتح الدنيا على قوم لايحاربون الأمم، بل يحاربون مافيها من الظلم والكفر والرذيلة؛ وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموج فى المد المرتفع: ليس فى داخلها إلا أنفس مندفعة إلى الخارج عنها ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمما ليس فى الداخل منها إلا النفوس المستعدة أن تهرب إلى الداخل..!

قالت مارية: والله لكأننا ثلاثتنا على دين عمرو..

وانفتل قيس من الصلاة، وأقبل يترحل، فلما حاذى مارية كان عندها كأنما سافر ورجع، وكانت ماتزال فى أحلام قلبها، وكانت من الحلم فى عالم أخذ يتلاشى إلا من عمرو وما يتصل بعمرو..

وفى هذه الحياة أحوال " ثلاث" يغيب فيها الكون بحقائقه: فيغيب عن السكران، والمخبول، والنائم، وفيها حالة رابعة يتلاشى فيها السكون إلا من حقيقة واحدة تتمثل فى إنسان محبوب!

وقالت مارية للراهب شطا: سله: ماأربهم من هذه الحرب؟ وهل فى سياستهم أن يكون القائد الذى يفتح بلداً، حاكماً على هذا البلد..

قال قيس: حسبك أن تعلمى أن الرجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملاً فى تحقيق كلمة الله، أما حظ نفسه فهو فى غيرهذه الدنيا.

وترجم الراهب كلامه هكذا: أما الفاتح فهو فى الأكثر الحاكم المقيم، وأما الحرب فهى عندنا الفكرة المصلحة تريد أن تضرب فى الأرض وتعمل، وليس حظ النفس شيئاً يكون من الدنيا؛ وبهذا تكون النفس أكبر من غرائزها، وتنقلب معها الدنيا برعونتها وحماقاتها وشهواتها كالطفل بين يدى رجل: فيهما قوة ضبطه وتصريفه؛ ولو كان فى عقيدتنا أن ثواب أعمالنا فى الدنيا، لانعكس الأمر.

قالت مارية: فسله: كيف يصنع عمرو بهذه القلة التى معه، والروم لايحصى عددهم؟ فإذا أخفق عمرو فمن عسى أن يستبدلوه منه؟ وهل هو أكبر قوادهم أو فيهم أكبر منه؟

قال الراوى: ولكن فرس قيس تمطّر وأسرع فى لحاق الخيل على المقدمة كأنه يقول: لسنا فى هذا..!

۞۞۞

وفتحت مصر صلحا بين عمرو والقبط، وولى الروم مصعدين إلى الإسكندرية؛ وكانت مارية فى ذلك تستقرئ أخبار الفاتح تطوف منها على أطلال من شخص بعيد، وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملك إلا حبه أن يأخذها. وجعلت تذوى، وشحب لونها، وبدأت تنظر النظرة التائهة، وبان عليها أثر الروح الظمأى، وحاطها اليأس بجوه الذى يحرق الدم، وبدت مجروحة المعانى؛ إذ كان يتقاتل فى نفسها الشعوران العدوان: شعور أنها عاشقة، وشعور أنها يائسة!

ورقت لها أرمانوسة، وكانت هى أيضاً تتعلق فتى رومانياً، فسهرتا ليلة تديران الرأى فى رسالة تحملها مارية من قبلها إلى عمرو كى تصل إليه، فإذا وصلت بلغت بعينيها رسالة نفسها..

واستقر الأمر أن تكون المسألة عن مارية القبطية وخبرها ونسلها وما يتعلق بها؛ مما يطول الإخبار به إذا كان السؤال من امرأة عن امرأة؛ فلما أصبحتا وقع إليهما أن عمرا قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم، وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوض أصابوا يمامة قد باضت فى أعلاه، فأخبروه، فقال: " قد تحرمت فى جوارنا، أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها، فأقروه!

۞۞۞

ولم يمضى غير طويل حتى قضت مارية نحبها، وحفظت عنها أرمانوسة هذا الشعر الذى أسمته: **نشيد اليمامة:**

على فسطاط الأمير يمامه جاثمة تحضن بيضها.
تركها الأمير تصنع الحياة، وذهب هو يصنع الموت!
هى كأسعد امرأة ترى وتلمس أحلامها.
إن سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض.

۞۞۞

على فسطاط الأمير يمامه جاثمة تحضن بيضها.

لو سئلت عن هذا البيض لقالت: هذا كنزى.

هى كأهنأ امرأة ملكت ملكها من الحياة ولم تفتقر.

هل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا كلفته رجلاً واحد أحبه.

۞۞۞

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.

الشمس والقمروالنجوم، كلها أصغر فى عينها من هذا البيض.

هى كأرق امرأة، عرفت الرقة مرتين: فى الحب، والولادة.

هل أكلف الوجود شيئاً كثيراً إذا أردت أن أكون كهذه اليمامة.

۞۞۞

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.

تقول اليمامة: إن الوجود يحب أن يرى بلونين فى عين الأنثى:

مرة حبيبا كبيراً فى رجلها، ومرة حبيبا صغيراً فى أولادها.

كل شيء خاضع لقانونه، والأنثى لاتريد أن تخضع إلا لقانونها..

۞۞۞

أيتها اليمامة؛ لم تعرفى الأمير وترك لك فسطاطه!

هكذا الحظ: عدل مضاعف فى ناحية وظلم مضاعف فى ناحية أخرى؟

احمدى الله أيتها اليمامة، أن ليس عندكم لغات وأديان،

عندكم فقط،: الحب، والطبيعة، والحياة!

۞۞۞

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها،
يمامة سعيدة، ستكون فى التاريخ كهدهد سليمان،
نسب الهدهد إلى سليمان، وستنسب اليمامة إلى عمرو..!
واهاً لك يا عمرو! ماضرّ لو عرفت اليمامة الأخرى ..!

محمد الزعيم

أحمد حسن الزيات

[نشرت فى مارس ١٩٤٠]

ولدت سنتنا الهجرية الجديدة ـ وأسفاه ـ فى هذه الأيام التى اختبل فيها إنسان الغرب فزلزل جوانب الأرض على نفسه، وأبكم فى فمه حجة العقل ووحى الضمير، فلا يتكلم إلا بلسان النار، ولا يصول إلا ببأس الحديد. وراجت المنايا الرواعد تدكدك المدن والناس فى فجوات القنابل، فلا ترى اليوم فى بلاد الحرب غير مقبور أو منتظر، ولا فى بلاد الحيدة غير مذعور أو حذر. ومفزع الشعوب فى غشية هذه الخطوب الزعماء والقادة. فليت شعرى إلى من يفزع العرب والمسلمون من هول هذه الساعة؟ لم يتح الله لهم بعد محمد وخلفائه زعيماً تجتمع عليه القلوب وترجع إليه الأمور فى أقطارهم البعيدة ووجوههم المختلفة؛ وإنما ابتلاهم بالانقسام والفرقة حين ضلوا الطريق، فكان فى كل قطعة من الوطن الأكبر سرير وأمير، وتوزعت زعامة محمد فى كل جيل وفى كل قبيل بين عشرات من الرجال العجاف، فكانت كالشعلة العظيمة الوهاجة تقطعت أقباساً كشموع الأطفال لاتقوى على نسم الريح ولا تظهر فى حلك الليل!

تعالوا يازعماء اليوم عانين خاشعين ألق عليكم درساً من زعامة محمد! إن فيكم زعماء أحزاب، وليس فيكم زعيم أمة. أما هو فكان زعيم الإنسانية جمعاء. بلغتم مكان الزعامة الإقليمية عن طريق الحزبية أو الثروة أو القوة، ثم لم تستطيعوا أن تنسوا ضعف القمىء الصغير الذى ارتفع على كواهل غيره، أما هو فقد بلغ الزعامة العالمية عن طريق الألم والفقر والغربة والجهاد، ثم جعل فى عشر سنين من الرعاة الجفاة المشتتين على رمال الفقر، أمة متماسكة الأجزاء، متحدة الأهواء، متساندة القوى، متجانسة الطباع، بلغت رسالة الله، وحكمت عامر الأرض، ومدنت أكثر العالم.

إنكم تكونون قبل الزعامة ناسًا كالناس، ثم تصبحون بعدها آلهة كالآلهة، تنكرون الخاصة، وتزدرون العامة؛ ثم تمتازون فتدخلون بفضل المبادئ المزورة والمناصب المسخرة فى دنيا النبلاء والأغنياء. وماذا بعد هذا؟ أما هو فقد ملك الحجاز واليمن، وجبى الجزيرة كلها ومادانها من العراق والشام، وظل ينام على

فراش من أدم حشوه ليف، ويبيت هو وأهله الليالى طاوين لايجدون العشاء، ويمكثون الشهر لايستوقدون ناراً، إن هو إلا التمر والماء، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ، ويقسم على الناس أقبية الديباج المخوص بالذهب؛ فإذا أقبل على أصحابه فقاموا إجلاً له قال لهم: "لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً. إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد" وكان ذات مرة فى سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة. فقال رجل: على ذبحها، وقال ثان: على سلخها، وقال ثالث: على طبخها. فقال الرسول صلوات الله عليه: وعلى جمع الحطب. فقالوا: يارسول الله نكفيك العمل. فقال: علمت أنكم تكفوننى إياه ولكننى أكره أن أتميز عليكم!

ولما أفاض إلى الله قاسم الفىء زعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله!

إنكم حينما تتزعمون لاتفكرون إلا فى مثوبة الصديق وعقوبة العدو ثم لاتخرج أعمالكم وآمالكم عن دائرة الحزبية الصغيرة الحقيرة؛ فالمنفعة تقاس بمقياس الحزب، والسياسة تتلون بلون المنفعة. أما هو فكان يعادى فى الله ويصادق فى الله. اشتط فى أذاه المشركون فى مكة والمنافقون فى المدينة، فلما أمكنه الله منهم بسط عليهم جناح عفوه، وقال لقريش يوم الفتح: يامعشر قريش! ماترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً! أخ كريم وابن أخ كريم! قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثم كانت سياسته كنور الله لاتعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن، إنما هى سر الخالق العظيم استعلن فى سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم، ثم دوّى فى غياهب الآفاق ومجاهل الأبد ليكون الشعاع الهادى لكل ضال، والنداء الموقظ لكل غافل.

إنكم تسيرون الجنود إلى الخنادق وتبيتون على حشايا الديباج، وترسلون العمال إلى المهالك وتظلون فى أبراج العاج، أما هو فكان يقاتل مع الجندى حتى يدمى، ويعمل مع العامل حتى ينصب. وكان صحبه إذا احتدم البأس واحمرت الحدق اتقوا به فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه!

ذلك محمد يازعماء اليوم وهؤلاء أنتم! فهل تحسون بينكم وبينه صلة، أوتجدون بين سياستكم وسياسته مشابهة؟

لاتقولوا إنه الوحى، فما كانت حياة الرسول كلها ولا سياسته كلها من هدى الوحى؛ ولكن قولوا إنها الرجولة الكاملة والخلق العظيم والعبقرية الفذة والشخصية القوية. وصفة القوة لاتدل على شيء فى شخصية الرسول، فإنها لم تظهر فى أحد قبله ولابعده حتى يقوم بها وصف. وماظنكم بشخصية تخضع، لليتيم العديم الزارى على الآلهة والسادة، الرءوس الطاغية والنفوس العاتية والقلوب الغلاظ، فيسمتون سمته فى الخلال، وينهجون نهجه فى العيش، ويأخذون أخذه فى المعاملة، ويجمعون على حبه وطاعته وتفديته إجماعاً لايخرقه إلا الكفر بالله. فأقواله سنن تتبع، وأعماله عهود تحفظ، وآراؤه أوامر تطاع، وأحكامه أقضية تنفذ. فعليكم يازعماءنا بسيرة محمد وسياسة محمد، فلعل فيكم من تدركه نفحة من نفحاته القدسية فيجدد ما رث من دعوته، ويجمع ماشت من وحدته، ويصلح مافسد من أمته! ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾.



الحياة جميلة

أحمد حسن الزيات

الحياة جميلة، ومايشوه جمالها غير هذا الحيوان المسمى بالإنسان! لم يعش فيها كما تعيش سائر الأنواع على رسم الفطرة وهدى الطبيعة ووحى الله، وإنما عاش على قوانين من وضعه، استمدها من أثرته وكبريائه وهواه، فكان شراً على نفسه وحربا على غيره.

ربما اقتتل الوحش والوحش أو الطير والطير فى سبيل القوت أو النسل، ولكنه اقتتال الساعة لايسبقه تدبير ولا يصحبه حقد ولا تلحقه جريرة. أما الإنسان فهو وحده كدر السلام وقذى الحياة! أحيا لنفسه بفضل ذاكرته ماضياً يحفظ الثأر، وخلق لنفسه بفضل بصيرته مستقبلاً يحمل الخوف، فكان حاضره بينهما قتالاً مستحراً لاينقطع ولا يفتر، إما دركاً لثأر الأمس الذى يتذكره، وإما كسباً لقوت اليوم الذى يتبصره، وإما درءاً لخوف الغد الذى يتصوره.

۞۞۞

الحياة جميلة وأجمل منها الحى الذى يدرك هذا الجمال ويتذوقه ويستوعبه ويكتسبه، فالطائر أجمل من الروض لأنه عرف كيف ينقل ألوانه على ريشه، ويجمع ألحانه فى صوته. والأسد أجمل من الغابة لأنه استطاع أن يجعل رهبتها حية فى رهبته، وعظمتها ماثلة فى عظمته. والجمل أجمل من الصحراء لأنه اندمج فيها فسير جبلها فى هيكله وصور رملها على أديمه. والحوت أجمل من البحر، لأنه قطعه من الحياة صيغت من لين مائه وشدة موجه وسرعة تياره.

وكأنما يدرك الطبيعة ويسايرها ويتأثر بها كل شيء من ناطق وصامت إلا هذا الإنسان! فقد خرج عن سنة الله فى خلقه حتى اختصه بالأنبياء والرسل والمدارس والكتب! وهيهات أن يدخل النور فى عين الضرير، ويبلغ الصوت أذن الأصم.

۞۞۞

الحياة جميلة. وليس جمالها قصراً على قوم دون قوم، ولا على طبقة دون طبقة. إنما الجمال وضاءة الفن الإلهى، أشاعه الله فى الأرض والسماء، وهيأ المدارك للاستغراق فيه والاستمتاع به. فمن كان ذا سمع وبصر وقلب وجده فى

كل منظر وأحسه في كل حالة. فهؤلاء الذين يمرون عليه وهم معرضــون عنـه قد فسدت فيهم طبيعة الحياة، وتبدلت فيهم ملكة الحس، فانقطع ما بينهـم وبيـن الوجـود الحق والوجدان الصحيح.

إن الجمال وسيلة الطبيعة لحفظ الحياة وبقاء النوع، تجمع به ما شـت، وتؤلـف به ما نفر. وهو بعد ذلك سرور النفس ونور القلب وسلام الـروح؛ فمـن تمـلاه فـى صوره الحسية والمعنوية فى الكون كان له منه فى كل زمــان شـباب، وفـى كـل مكان ربيع.

۞۞۞

الحيـاة جميلـة، ومظهـر الشـعور بجمالهـا المـرح والبهجـة. فأينمـا تـر الخمـود والكآبة تر الشعور الذى أدركه الكلال أو أصدأه القبح أو أفسده الشـر، فيمـوت فيـه الوعى، أو ينعكس فيه الجمال، أو ينقلب فيه الخـير. فالجمـال فـى الطبيعـة لابـد أن يجاوبه جمال فى النفس. والصفاء فى العيش لابد أن يعادله صفاء فى القلب. ومـن هنا استسر الجمال والصفو على ذوى الحس المظلم والضمير الخامد.

كن جميلاً تر الجمال فى كـل شـيء حتـى فـى الدمامـة. ومتـى امتـلأت قـواك المدركة بمفاتنه ومباهجه حلى الوجود فى صدرك، وساغ المر فـى فمـك، وسـعيت إلى مجالى الجمال فى النيل والجزيرة والريـف؛ فشـدوت مـع الطـير، وطـرت مـع الفراش، وسبحت مع السمك، واستطعت أن تطاول الأغنياء فـى العـز وتشـآهم فـى الغبطـة، وتقـول لهـم : إن السـعادة بالجمـال أضعـاف السـعادة بالمـال؛ والمـال لكـم فجدواه عليكم، ولكن الجمال لله فجدواه على الناس.

۞۞۞

الحياة جميلة، وأنت ياابن الحيــاة وارث هذا الجمـال. فلـم تـزوى عنـه وجهـك وترسـل عينيـك بالحسـد والحقـد إلـى المـترفين الخـافضين وهـم يتلهــون بــالقنص، أويـتزحلقون علـى الجليـد، أو يتمتعـون بالسياحة؟ إن فـى القـاهرة وضواحيهـا مـن الجمال المبذول والنعيم المشاع مايكفكف ثورتك على الغنى، ويلطف سـخطك علـى الحياة. وهذا هو النيل الجميل يجـرى بيـن ضفافـه السـحر، ويخطـر علـى سـواحله الفتون، فمن الذى يمنع جمهرة الشعب أن تداعب أمواجه بالمجاديف، وتشـق عبابـه

بالزوارق، وتقيم على شاطئيه مهرجانات السباق ومسارح اللهو؟ إنك لتمر على النيل فى أى ساعة شئت من النهار أو الليل فتحسبه من السكون المخيم على شاطئه ومائه يجرى فى مجاهل الأرض. ولولا أن عليه جسوراً لامناص من عبورها إلى الشاطئ الغربى لما ذكره القاهريون إلا كما يذكرون المقطم!

إن حياة الكسل والرخاوة والخمود والانقباض التى نحياها ألقت من ظلالها الباردة على النيل والجزيرة، فجعلت النيل فى ركود المستنقع، والحدائق فى سكون المقبرة. ولذلك ترى الناس يمشون على جنباته أو بين جنانه مطرقين صامتين كأنهم فى مجال التأمل أو فى مقام العبرة!

۞۞۞

يوم العيد

المنفلوطى

أفضل ما سمعت فى باب المرءة والإحسان أن امرأة بائسة وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل فى باريس، يطرقه الناس فى تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات فى حسنه وجماله، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيماً، لالأنها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية مايستفز الأطفال الصغار، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدها الصغير الذى تركته فى منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد كما وعدته، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالى به مغالاة شديدة حتى علمت أن يدها لاتستطيع الوصول إلى ثمنه، وأنها لاتستطيع العودة بدونه، فساقتها الضرورة ـ التى لايقدرها قدرها إلا من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم وفؤاداً مستطاراً كفؤادها ـ إلى أن تمد يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أن الرجل لايراها، ولايشعر بمكانها. ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق فى آن واحد خفقتين مختلفتين، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التى ستقدمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها.

وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لاتفوته معرفة ما يدور حول حانوته، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها، ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التى تسكنها ففاجآها، وهى جالسة بين يدى ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور، فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخة عظمى، لا على التمثال الذى انتزع منه، بل على أمه المرتعدة بين يديه، وكانت أول كلمة نطق بها وهو جاث بين يدى الرجل: رحماك بأمى يامولاى.. وظل يبكى بكاءً شديداً، فجمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر وأطرق إطراقاً طويلاً، وإنه لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد، فانتفض انتفاضة شديدة وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة فى اليوم الذى يفرح فيه الناس جميعاً، فالتفت إلى الجنديين وقال لهما: أظن أنى

أخطأت فى اتهام هذه المرأة فإنى لاأبيع هذا النوع من التماثيل.. فانصرفا لشأنهما، والتفت هو إلى الولد فاستغفره ذنبه إليه وإلى أمه، ثم مشى إلى الأم فاعتذر إليها عن خشونته وشدته، فشكرت له فضله ومروءته، وجبينها يرفض عرقا حياء من فعلتها، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ماجعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان.

لاتأتى ليلة العيد حتى يطلع فى سمائها نجمان مختلفان، نجم سعود، ونجم نحوس، أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل، ولأولادهم اللعب والتماثيل، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب، ثم ناموا ليلتهم نوما وهادئاً مطمئناً تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء،وأما الثانى فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا، يئنون فى فراشهم أنينا يتصدع له القلب ويذوب له الصخر، حزنا على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بألسنتهم وبأعينهم ماذا أعدوا لهم فى هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم، فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لايستطيعون الوفاء بها.

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البر والمعروف، ويفيضوا عليهم فى ذلك اليوم السعيد النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم فى باب المروؤة والإحسان ماسجل لصاحب حانوت التماثيل.

إن رجلاً يؤمن بالله ورسله، وآياته وكتبه، ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان، لايستطيع أن يملك عينه من البكاء ولا قلبه من الخفقان، عندما يرى فى يوم العيد، فى طريقه إلى معبده، أو منصرفه من زياراته، طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين، تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلاً من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها، ورثاثة ثوبها، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن، فلا يجد بداً من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها، وعلى بؤسها ومتربتها، لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لايوازى ذرة واحدة من السعادة التى يشعر بها فى أعماق قلبه عند ما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة فى عينيها..

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم فى سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة فى كل عام مرة أو مرتين!!

من تجاربى

أحمد أمين

ميزة إنسان على إنسان وأمة على أمة، هى القدرة على الاستفادة من التجارب وعدمها. فالحادثة تحدث أمام جمع من الناس فيستفيد منها أحدهم بمقدار مائة، وآخر بمقدار خمسين، وثالث تمر منه الحادثة على عين بلهاء، لا يستفيد منها شيئاً.

عند الإنجليز مثل يقول: " إن العاقل له عينان تبصران، أما الأبله فله فى وجهه تجويفان".

وكم من الناس من لهم أعين، ولكن لايبصرون بها، وآذان ولكن لايسمعون بها.

إنك قد تستطيع أن تفتح عينيك على كتاب وتقرأ كلماته، ولكن لاتعى منه شيئاً ولا تفهم شيئاً إذا كان عقلك غائباً، فلا فائدة فى النظر من غير ملاحظة، ولا فى التجارب من غير عقل.

وأنت فى شبابك تستطيع أن تمرن عينيك وأذنيك وجميع حواسك على أن تربطها بالعقل، فتلاحظ وتجرب وتستفيد من الملاحظة والتجربة.

والفرق بين من يستفيد من التجربة ومن لايستفيد، أن الأول يستطيع بتجاربه أن ينتهز الفرص فى حينها، وأن يتجنب الخطر قبل وقوعه. على حين أن الثانى لاينتهز فرصة ولايشعر بالخطر إلا بعد وقوعه.

إنك تقرأ كتب التاريخ لتستفيد من أعمال الناس، وما وقع لهم، وما صدر منهم، وما كان من نتائج أعمالهم، وتقرأ سير العظماء لتتشبه بهم، وتدرك موضع عظمتهم، وتقرأ الطبيعة والكيمياء لتستفيد من استكشاف من قبلك لقوانين الطبيعة، فالحياة كلها تجارب واستفادة من التجارب.

إنك الآن فى شبابك تختزن معلومات من كل ما تسمع وترى وتقرأ، فمن الخير أن يكون مخزنك أنظف مايكون وأثمن مايكون، وأن يكون أشبه بدكان تاجر الجواهر الثمينة، ليس فيه شىء رخيص، ولا شىء تافه، ثم اجتهد ـ بعد ذلك ـ أن تستخدم هذا المخزن خير استخدام.

والآن أقص عليك شيئاً من تجاربى لعلها تنفعك:

من الدروس الأولــى التـى تعلمتهـا، أنـى لـم أخـرج إلـى هـذا الوجـود صحيفـة بيضاء، كما كان يظن القدماء، بل كثير من صفات أبوى وأجدادى وماحدث لهم قـد نقشت فى صحيفتى، سواء فى ذلك الصفات الجسمية أو العقلية أو الخلقية.

ولأضرب لك مثلين، كان لهما أثر سيء فى حياتى:

أحدهما أنى وأنا حمل فى بطن أمى كانت لى أخت، فتاة فى الثانية عشرة من عمرها كلفتها والدتى ووالدتها، أن تصنـع قهـوة لضيوفهـا، فمـا أشـعلت النـار فـى "السبيرتو" حتى التهب، وأصابها فى شعرها ثم فى وجهها ثم فى ملابسها وجسمها، فصرخت، ثم أدركوها وهى شعلة نار، ولم ينفع فيها إنقاذ ولاطب، وأسلمت روحها لخالقها، فقضيت أشهراً تعيسة فى بطن أمى أتغذى بدمها الحزين، وتتكون أعصابى من أعصابها المحطمة، ويتحول بعض جسمى إلى دموع مسفوحة، وآهات مضنية، ثم ولدت فى هذا الجو الحزين، لم أشاهد أول ماشهدت ضحكة ولا ابتسامة، بل كان حزن وسكون ودموع وضنى.

هل كان لهذا الحادث أثر فى نفسى؟ وهل كان ما أجد فى كل حياتى من حـزن عميق، وميل إلى الغناء الحزين والمنظر الحزين، وتفضيل المأسـاة علـى الملهـاة، هل كان مرجع ذلك كله إلى هذا الحدث؟ قد يكون، وقد يكـون أحـد الأسـباب غذتـه الأحداث والتربية التى لم تمح أثره ولم تصلح فاسده. ولهذا كان القدمـاء علـى حـق فى أن ينصحوا الحامل أن تنظر إلى الصورة الجميلة، وأن تحيط نفسـها بالمنـاظر السارة والأحاديث المفرحة.

والحادثة الثانية أنى ورثت من والدتى ـ رحمها الله ـ قصراً فى النظر أتعبنى فى حياتى، وقد عالجته أخيراً بالمنظار، فلم يكن فيه الغناء الكافى، وكم فـوت علـىّ قصر النظر من فوائد، أوقعنـى فـى مـآزق، وأخجلنـى فـى مواقـف، وأربكنـى فـى التصرف، وكان له أثر فى أخلاقى.

وزاد فـى الحـادثين سـوءا أن التربيـة كـانت عندنـا ـــ ومــاتزال ـــ متروكــة للمصادفة. ولو كانت تربية صحيحة لدرست فيها شئون كـل طفـل وشـئون أسـرته، وعرفت أمراضه ومنشؤها، ووضعت لهـا طـرق العـلاج الصالحـة لهـا. لـو كـانت

تربيتى صحيحة لاكتشفت أعراض الحزن فى الحالة الأولى، وعوجلت من الناحية النفسية علاجاً صحيحاً، وعودنى المشرفون على تربيتى أن أتذوق السرور كما أتذوق الحزن، وأن أنعم بالحياة كما ينعم بها صحيح الأعصاب صحيح النفس، ولعولج قصر نظرى من أول الأمر ـ كما يقتضيه العلم ـ فخفف من حدته إن لم يستطع أن يذهب بالمرض كله.

كم تستطيع التربية أن تصلح من فساد وتعالج من مرض، ولكن كل شىء عندنا متروك للمصادفة، زراعة الزراع ومالية التاجر وسياسة الأمة. القاعدة عندنا " كل شىء حيثما اتفق" وعند غيرنا " كل شىء حسبما وصل إليه العلم الحديث"

استفد من تجاربى بأن تؤمن بقانون الوراثة، فتسير فى عملك على وفقه، فليس يصح أن يتزوج قصير النظر من قصيرة النظر، ولا مصدور من مصدورة، ولاضعيف القلب من ضعيفة القلب.

وأن تؤمن بالبيئة وأثرها فى الإنسان فتحيط نفسك بخير بيئة ما أمكنك.

وأن تؤمن بالتربية فتعالج بها المرض وتكمل بها النقص، فلكل داء دواء من التربية متى أجيد فهمها.

وأن تؤمن بالعلم وتحله فى حياتك محل المصادفة وترك الأمور حيثما اتفق، فقد أصبح بناء كل شىء على العلم هو دعامة المدنية الحديثة وشعار التقدم الإنسانى.

۞۞۞

العصافير

أبو المعاطى أبو النجا

كيف تبصر عصفوراً عن قرب؟ ربما لم تفكر يوما فى سؤال كهذا، ولاأذكر أننى فى طفولتى كلها واجهت مثل هذا السؤال. كانت القرية التى نشأت فيها تحيط بها الحقول من جميع الجهات، كما كانت تمتلئ بالأجران، التى تمتلئ بدورها فى مواسم الحصاد بالمحاصيل. وهنا وهناك كانت تطير أسراب العصافير، تملأ السماء وفروع الأشجار، وأسطح المنازل. كان منظرها مألوفا وطبيعيا إلى الحد الذى لايلفت النظر.

ودائماً كانت تطير فى جماعات إلى الحد الذى لم أفكر فيه أنه يوجد هناك عصفور واحد منفرد أتمنى رؤيته عن قرب!!

ربما لهذا أحسست بالمفاجأة والدهشة حين طلب منى طفلى الذى لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره أن يبصر عصفوراً عن قرب!!

قلت فى نفسى: لعله جوع المدينة لرؤية الطبيعة. ولكن طفلى، الذى أدهشه صمتى، بقدر ما أدهشنى مطلبه، أعاد طلبه فى صيغة سؤال وهو يرفع إلى نصف وجه مغمضاً إحدى عينيه:

ـ لماذا تهرب العصافير يا أبى حين أقترب منها؟

ـ لأنها تخاف!

ـ ولماذا تخاف يا أبى؟

ـ لو بقيت فى مكانها فسوف تمسك بها .. وهى لاتريد ذلك .. ثم أضفت بعد أن تلكأ السؤال التالى على شفتى طفلى:

ـ لأنها تريد أن تبقى حرة!

ولكنى لا أريد الإمساك بها يا أبى .. أريد أن أراها عن قرب .. فهى جميلة جداً..!

ـ هى لاتعرف أنك لاتريد الإمساك بها .. ثم قلت محاولاً أن أشاكسه، مستغلا صمته الطارئ:

ـ وربما لو وقفت لفكرت فى لمس ريشها الناعم، والإمساك بها!

ـ ولكنى لا أريد الإمساك بها .. أريد أن أراها عن قرب. قالها بتأكيد غاضب، وهو يهم بالانصرف يائسا من تحقيق رغبته!!.

ولكن رغبة طفلى أصبحت على نحو ما رغبتى!

تذكرت كل ما قرأته فى كتب التربية عن جدوى أن يقوم الأطفال بتربية الطيور والحيوانات والزهور وملاحظة نموها .. واعتقدت أننى سوف أحقق رغبة طفلى ورغبتى، ورغبة علماء التربية، حين أشترى له قفصا، به زوجان من طيور الزينة الملونة ليراهما عن قرب.

حين أحضرت القفص فى اليوم التالى كاد طفلى يطير من الفرح.. لم يتخيل أن يتحقق أمله بهذه الصورة الرائعة، وبهذه السرعة. وامتلأت الشقة وخاصة فى لحظات الشروق والغروب بزقزقة العصفورين، وبفرحة ابنى، وبعشرات الحكايات التى يرويها كل يوم عن ألعابهما فى القفص، والطريقة التى بها يأكلان، ويشربان، ويقفزان، ويتناغيان، ويتشاجران!! كان هو الذى يغير لهما الماء والطعام فى العلبة المعدنية الخاصة بذلك فى القفص، محاذرا أن يهرب العصفوران أثناء فتح باب القفص وإغلاقه!

وكان هو الذى يغير مكان القفص فى الشرفة كلما تغيرت حركة أشعة الشمس أثناء النهار، وكان هو الذى طلب مجموعة من أقلام الرسم الملونة ليرسم صورا للعصفورين، تنقل إلى الورق حركتهما والألوان الزاهية البديعة فى أجنحة العصفورين!!

ذات مساء عدت إلى الشقة لأجد فى عينى طفلى نظرة واجمة وساهمة، سألته:

ـ ماذا يحزنك؟

ـ العصافير ياأبى؟

ـ ماذا حدث لها؟

ـ لاتريد أن تأكل .. ولاتريد أن تلعب؟

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف؟

كنت قد اشتريت كتابا عن تربية هذا النوع من الطيور. وبملاحظة العصفورين فى اليوم التالى، أدركت أنهما قد أصيبا بمرض قد يؤدى بهما إلى الوفاة. وخشيت من تأثير صدمة كهذه على نفسية طفلى. لم أرد أن أدخل فى تجربة علاج قد لايجدى وقد يلحق بهما الموت قبل الشفاء. فكرت أن الوقت المناسب قد حان لأعلم طفلى درسا، وأبعد عنه شبح التجربة القاسية؟

قلت له:

ـ إنها تريد أن تنطلق إلى الفضاء .. إنها تكره القفص وتحب الحرية.

ـ ولكنها لم تكن تريد ذلك قبل الآن يا أبى .. كانت تأكل وتلعب!

ـ كانت تحتمل وتنتظر.. ولكن يبدو أنها لم تعد قادرة على الاحتمال والانتظار!

ـ وكيف تحتمل الجوع يا أبى؟

ـ هذا النوع من العصافير تحتمل الجوع، ولايحتمل أكثر من الآخر.. لكن فى النهاية..

ـ هل ستموت يا أبى مالم نطلقها..؟

ـ نعم .. ثم أضفت محاولاً أن أدفع بالموقف إلى نهايته.

ـ ما رأيك لو أطلقناها إلى الفضاء؟؟

صمت الصبى، قطب حاجبيه وهو ينظر فى حنين إلى القفص، وكأنه يبحث عن مخرج، ثم قال بتصميم:

ـ لا يا أبى .. ولكن أريد أن أراها عن قرب وهى غير جائعة، وغير خائفة!

أربكنى إصرار الصبى. وأذهلنى نطقه لهذه العبارة .. " غير جائعة! وغير خائفة"

قلت مستسلما:

لا أدرى يا عزيزى كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

ـ إنه أمر من الصعب جداً حدوثه كما ترى!

مرت لحظات صمت مفعمة بالحيرة، لم أشأ أن أتدخل فيها بكلمة واحدة، ربما لأننى لا أجد هذه الكلمة، وربما لأننى تركت لطفلى ـــ لأول مرة فى حياته ـــ أن يتخذ بنفسه القرار الذى كان لابد أن يتخذه حيال عجزى عن تحقيق أمنيته فى رؤية عصافير غير جائعة وغير خائفة عن قرب!

وفجأة مد يدا مترددة.. وفتح باب القفص .. وللحظات بدأ العصفوران وكأنما يترددان بدورهما فى الخروج من القفص. وتردد الفرح والخوف والوجوم على وجه الصبى حين بدأ أول عصفور يقف على الباب المفتوح وينتظر أو يفكر قبل أن يتخذ قراره هو الآخر! حين طار أول عصفورسقط على حافة الشرفة وبذل مجهوداً ليسترد توازنه قبل أن يلحق العصفور الآخر ويسترد توازنه بجواره .. ومرت لحظات لم يبرح فيها العصفوران مكانهما من حافة الشرفة .. لحظات خيل فيها للصبى أنهما سيبقيان هكذا دائماً ليتحقق له الأمل الصعب العسير: عصفوران بلا خوف وبلا جوع يراهما عن قرب!

ولاحت فى عينى الصبى نظرة، ودّ فيها أن يرجوهما فى تحقيق أمنيته.. ويعدهما فيها بالطعام بلا قفص! ولكن العصفورين قفزا إلى الفضاء ليسقطا فى خلاء مجاور البيت.

كنت أعرف أنهما لن يذهبا بعيداً، ولم أكن أحب أن يرى طفلى المصير القاسى الذى ينتظرهما. قلت له وأنا أدعوه للدخول من الشرفة.

ـ سوف يطيران إلى أقرب شجرة، ويتخذان فوقها عشا..

لم يرد الصبى .. ومضت فى عينيه نظرة حزينة مستريبة..

ـ مضت أيام دون أن تفارق عينيه تلك النظرة الحزينة المستريبة التى تتابع العصافير البعيدة وهى تتقافز وتلهو وتلعب دون أن تسمح له برؤيتها عن قرب!.

انتظرت أن ينسى طفلى مثل كل الأطفال سؤاله وحزنه، ولكنه لم يفعل ذلك إلا فى ذلك الأصيل الذى طرق فيه باب حجرتى، ودخل على أطراف أصابع قدميه

يشير إلى لكى أتبعه فى صمت وحذر.. لم أسأله عما يريد فقد كنت سعيداً بنظرة السعادة فى عينيه، وكان يكرر لى إشارته بإصبعه على شفتيه المضمومتين لكى أتبعه فى صمت. سرت وراءه إلى حجرة صغيرة مخصصة للأشياء القديمة، لها نافذة زجاجية مغلقة دائماً لأنها تطل على مسقط خلفى للعمارة، ولأن أحداً لايدخل هذه الحجرة إلا ليأخذ شيئاً أو يتركه..

وأشار الصغير بإصبعه إلى النافذة الزجاجية المغلقة دائماً .. خلفها وعلى حافة الإفريز الخارجى كان يوجد بينه وبين ماسورة المياه فى العمارة عش للعصافير، ترتفع منه رؤوسها الصغيرة، وهى تهم بالتقاط الحب من أمها التى تذهب وتعود به!

كانت أمنية الصغير تتحقق على نحو رائع لم يخطر ببالى أو بباله.. كانت هناك عصافير جميلة تزقزق وترفرف بأجنحتها، بلا جوع أو خوف وكان هو فى مكمنه يراها كما تمنى دائماً عن قرب!!

لن أنسى ماحييت نظرة الفرح فى عينى طفلى.. ويبدو أنه لم يجد فى عينى مثل هذه النظرة .. سألنى وهو يتقدمنى إلى خارج الغرفة الصغيرة:

- ألست سعيداً ياأبى لأنك أبصرت مثلى عصفوراً عن قرب؟؟

- سعيد جداً يا عزيزى! لماذا تظن أننى غير سعيد؟

- لأنك تبدو حزيناً حقاً يا أبى؟

حاولت عبثاً أن أرسم ابتسامة على شفتى، ولكنه عاد وكرر السؤال:

- لماذا أنت حزين يا أبى؟؟

لم أدر ماذا أقول له؟ لولدى. كان فى حاجة إلى عشر سنين فوق عمره لأحدثه عن العصافير الجميلة التى يعشقها الكبار أيضاً، والتى يحلمون برؤيتها عن قرب، وهى غير جائعة وغير خائفة! ولكنهم لايقدرون لأنهم لم يجدوا بعد مثل هذه النافذة التى لا تحجب الرؤية، ولكنها تحجب الخوف!

وأودعت حيرتى وحزنى قبلة على وجه الصغير السعيد حتى لا أقلل من سعادته، وحتى يصمت متمنيا أن يجد جيله دائماً هذه النوافذ التى لاتحجب الرؤية ولكنها تحجب الخوف، وحتى يبصر عصافيره الجميلة دائماً عن قرب!!

حكايتان من الفلكلور الألبانى

ترجمها إلى الفرنسية: روجر أرنالديز
ومنها إلى العربية: د. حامد طاهر

تقديم:

هاتـان الحكايتـان مسـتمدتان مـن منتخبـات دوزن الأدبيـة، التـى أصبحـت الآن قديمة. وترجع أهميتهما إلى مانجده فيها من أصل هندو أوربى، مع جـو ألـف ليلـة السارى فيهما هنا وهناك. لقد تم وضع الحكايتين فى نقطة اتصال بيـن حضــارتين. ولم يكتسبا من ذلك إلا المزيد من الروعة.

سوف نلاحظ أنهما لايحتويان على الطابع السحرى، بالمعنى الحرفـى للكلمـة. ومع ذلـك فـإن الأحـداث الغريبـة تتوالـى فيهمـا علـى أكـثر مـايكون الأمـر طبيعيـة وعفوية، ودون أى تبرير ذهنى، أو تدخل من العبقريات الفردية، والرواة..

إنه الروح النشط واليقظ الذى يمضى على سجيته، ليرضى الســامعين بأسـلوبه الشفهى، الغنى بالألوان والأصوات..

إنه روح الطفولة فى عالمها السعيد الصافى ..

[روجر أرنالديز ١٩٤٧]

(١) فـاطمـة

يحكى أنه كانت توجد ثلاث أخوات. صغراهن اسمها فاطمة. وهى أجمل الثلاثة. وفى ذات يوم، خرجت الأختان الأكبر، لتسألا الشمس.

– أيتها الشمس، من هى أجملنا؟

وأجابت الشمس: فاطمة

عندئذ راحتا تغرقان أنفسهما بالحلى والأساور. وفى اليوم التالى عادتا تسألان الشمس. وللمرة الثانية أعلنت الشمس رأيها لصالح فاطمة.

فكرت الأختان فيما ينبغى عمله، وقالتا فيما بينهما: غداً نتظاهر بالذهاب إلى الغابة، ونخرج قبل فاطمة ثم نقول لها: يمكنك أن تجدينا حيث تكون جرة كل منا معلقة..

وهكذا بدا لهما حسن صنعهما. وفى اليوم التالى، قالتا لفاطمة:

– اكنسى المنزل، وسنذهب نحن لجمع الحطب من الغابة، وسوف تجديننا حيث تكون جرتانا معلقتين.

رحلت الأختان. وعندما انتهت فاطمة من الكنس كانت على الطريق. ذهبت تبحث هنا وهناك، حيث يمكن أن تضع أختاها جرتيهما لكنها لم تجد شيئاً.. لأن أختيها مرتا من طريق آخر، عائدتين إلى المنزل.

لفت فاطمة الغابة ألف مرة باحثة عن مكان أختيها. وعندما سقط الليل عليها تسلقت أغصان شجرة عالية ولمحت على البعد ضوءاً يتلألأ فاتجهت ناحيته، وحمدت الله أن وجدت منزلاً، فدخلته.

كان هذا المنزل مسكناً لأربعين لصاً. وكان هؤلاء اللصوص يسرقون أثناء الليل، وفى النهار يعودون. وتبعاً لعادتهم، رجعوا فى اليوم التالى. ومع ضربات بنادقهم على الباب .. انفتح، فدخلوا، وجلسوا وعندما حان وقت الطعام، صفت الأطباق على مائدة رائعة، وقدمت مختلف ألوانه الشهية. لكنهم لاحظوا أثناء الأكل، أن هذا الطعام ليس من صنع طباخهم (وهذا حق لأن الطباخ عندما رأى فاطمة، أحبها، وكلفها بإعداد الطعام) وسأل اللصوص الطباخ:

هل عندك أحد بالداخل؟

وفى البداية تلجلج، ثم انتهى بالاعتراف بالحقيقة كلها. عندئذ أراد كل منهم أن يتزوج فاطمة، لكن خوفاً من أن يتصارعوا، فقد تركوها تتزوج الطباخ، وخرجوا..

أما فاطمة، فقد أحبها اللصوص الأربعون كأختهم تماماً، وأحضروا لها كل ما هو طيب.

وعندما علمت الأختان أن فاطمة على قيد الحياة، وأنها تزوجت فى مكان ما، حزنتا حزناً شديداً، وقررتا أن يقتلاها بأى وسيلة. وفى ذات يوم، أرسلتا لها عقداً ذهبياً ، كان مسموماً بحيث تموت عندما تضعه فى عنقها.

ودخلت خادمتهما، وحيت فاطمة، متمنية لها صحة جيدة، كما أمرتها سيدتاها أن تفعل. ثم أعطتها العقد، وما أن تناولته فاطمة حتى وضعته فى عنقها، وعلى الفور ماتت.

عاد اللصوص، وأطلقوا رصاصهم كى ينفتح الباب، وعندما لم يسمعوا إجابة، انتهوا باقتحامه بالقوة، وما أن دخلوا حتى رأوا فاطمة متمددة فى وسط الحجرة، فحركوها من هنا ، ومن هنا. وفى النهاية نزعوا العقد من عنقها، فدبت فيها الروح.. عندئذ قصت عليهم من أى شىء ماتت، فنصحوها بألا تقبل فيما بعد شيئاً من أختيها.

لكن فى اليوم التالى، عندما علمت الأختان بأنها مازالت حية، أرسلتا إليها خادمتهما بمنخل مليء بقطع من الذهب، مع بعض الأشواق والأمانى التى نجحت فى خداع فاطمة مرة أخرى. وما أن أفرغت المنخل فى حجرها، حتى سقطت ميتة.

عاد اللصوص من مغامرتهم الليلية، يصحبهم زوج فاطمة، ومن جديد وجدوها ميتة، فقاموا بتفتيشها، وأبعدوا قطع الذهب من حجرها وأكدوا عليها هذه المرة، أكثر مما سبق، ألا تمس شيئاً مما يأتى من أختيها فيما بعد.

أسفا! من جديد خدعت. لأن أختيها عندما علمت أنها لم تمت، أرسلتا إليها خاتماً، وما أن وضعته فاطمة فى أصبعها حتى سقطت ميتة.

وعندما عاد اللصوص من مغامرتهم الليلية، وجدوها ميتة وفتشوها.. لكن لم يرد على أذهانهم فكرة البحث فى يدها.

عندئذ بكوها ثم وضعوها فى نعش، وغطوه، ووضعوه فى أفرع سنديانه ينساب تحتها نبع ماء جار..

وذات يوم جاء سائس الملك لكى يسقى حصانه من النبع، وما كاد الحصان يقترب من الماء حتى ارتد دون أن يلمس قطرة منه، لأنه رأى فيه ظل النعش..
عاد السائس إلى الملك، وحكى له مارأى، فانتقل الملك بنفسه. وفى الموضع الذى ارتعد فيه الحصان، ألقى الملك ببصره إلى ماء الجدول فأبصر خيال النعش. عندئذ أمر بإنزاله، ورأى أنه يضم جسد فتاة غاية فى الحسن، فأوصى بنقلها إلى قصره، حيث وضعها فى أحد أجنحته.

ومر الوقت.. وبدأ فاطمة تنحل، وجسمها، يضمر. وبعد فترة سقط الخاتم من إصبعها، وفى نفس اللحظة، بعثت فيها الروح.

حينئذ تزوجها الملك. وعاشا طويلاً، وكانت دائماً سعيدة.

❂❂❂

(٣) الدب والدرويش

يحكى أن راعياً كان يحرس قطيعاً من الغنم. وكان يتشدد فى حراسته جداً، لأن دباً شرساً كان يأتى فى كل يوم، ويلتهم من قطيعه خمسة أو ستة أغنام.

وذات صباح جميل، مر بالراعى درويش متجول، وبعد أن تبادلا التحية، قال الراعى:

ـ يوجد هنا دب لا يتركنى هادئاً أبداً. فى كل يوم، يخطف منى خمسة أو ستة أغنام. ألا توجد وسيلة لوقفه؟

فأجاب الدرويش:

ـ سأقتله فى نفس المكان. ولن أطلب منك شيئاً سوى ثلاث قطع من الجبن الأبيض.

عندئذ أعطاه الراعى الجبن الذى طلبه، وجاء الدب كعادته ليخطف الأغنام. وعندما وصل، تقدم إليه الدرويش، وبدأت بينهما مجادلة لمعرفة من منهما أقوى من الآخر.

وبالطبع ظن الدب أنه الأقوى، لكن الدرويش قال له:

ـ إننى سأسحقك مثل هذه الأحجار.

وأخرج من جرابه قطعة الجبن الأبيض، ثم الثانية، والثالثة وفركها بيده، فبدت كأنها دقيق مطحون!

اندهش الدب بشدة. وتخير هو أيضاً حجراً أبيض من فوق الأرض، لكنه لم يقدر أن يفعل به مثلما فعل الدرويش، وحينئذ بدأت بينهما صداقة مشتركة ..

وبعد وقت قصير، جاع الدب، فطلب من الدرويش أن يذهب ليصطاد لهما ثوراً يأكلانه، قائلا له: إنه فى ذلك الوقت، سوف يجمع الحطب من الغابة.

لكن الدرويش قال له: اذهب أنت لاصطياد الثور، لأننى لا أهتم باصطياد تلك الفريسة الصغيرة. لأن ما يليق بى هو اصطياد أسد! وقد أتاحت له تلك الحيلة أن يتجنب اقتناص ثور! أما الدب، فقد مر بجانب قطيع من الثيران، وبسرعة قفز على ثور، وعاد به حاملاً إياه على كتفيه.

وفى تلك الأثناء مضى الدرويش إلى الغابة، وهناك ماذا فعل؟ أخذ حبلاً طويلاً، وربط به كل أشجار الغابة، كما لو كان سيقتلعها كلها بجذبة واحدة.

وعندما عاد الدب، نادى صديقه، فلم يجده، فنهض، ومضى إلى الغابة، ووجد ما أعده لاقتلاع كل أشجار الغابة بجذبة واحدة. اندهش الدب من صديقة الدرويش، وقال فى نفسه: إن هذا الرجل أقوى منى ألف مرة. ثم قال بصوت عال:

ـ ماذا سنفعل بكل هذه الأشجار التى ستقتلعها؟ خذ فقط منها فرعاً واحد أو اثنين، وعد.

فأجاب الدرويش:

ـ أنا لست الرجل الذى يأخذ فرعين صغيرين من الغابة. لكنك أنت الذى يفعل ذلك.

وعلى الفور، جذب الدب فرعين من شجرة، وعاد بهما حيث ترك الثور وبدأ الدب يقطعه. لكن كان ينبغى أن يطبخ. فقال الدرويش:

ـ سوف أذهب أنا لإحضار الماء. فابق هنا لتقليب الخشب دون أن تتعب نفسك (قال هذا لأن المسكين لا يستطيع أن يقلب ثوراً ضخم الجثة!) وأخذ الوعاء ومضى إلى النبع، وملأ وعاءه، ثم وضعه على كتفه، لكنه لم يستطع أن يحتفظ به طويلا، فتركه يسقط على الأرض، قبل أن يهلك تماما.

انتظر الدب ساعة، وساعتين، وأخيراً ذهب إلى النبع، الذى ذهب إليه الدرويش، وعندما وصل قال له:

ـ لماذا تأخرت طويلاً هكذا؟

فأجاب الدرويش:

ـ كنت أفكر فى طريقة لإحضار النبع من الصخرة التى يخرج منها. ومع الأسف لم أستطع إحضاره كما ينبغى. وقد وجدت أن رجوعى وحدى بوعاء يخجلنى. أما أنت فيمكنك حمله!

حمل الدب الوعاء على كتفه، ثم عاد الاثنان. وبينما هما سائران قال الدب للدرويش:

- هيا بنا نتصارع معاً قليلا

فصاح الدرويش فيه:

- انج بنفسك منّى، لأننى لا أرغب أن أسبب لك أذى.

ومع ذلك، انتهى بهما الأمر إلى أن يتصارعا: ضغط الدب على الدرويش بقوة جعلت عينى الدرويش تكادان تخرجان من رأسه. وعندما شاهد الدب وجهه المنتفخ، وعينيه الجاحظتين، سأله:

- لماذا أصبحت هكذا؟

فأجاب الدرويش:

- لأننى لا أعرف بالضبط أين أقذف بك. من هنا فأفتتك قطعا، أم من هنا، وهذا أسوأ!!

فقال الدب:

- اسمح لى أن أطلب عفوك .. وتركه.

وبعد وقت قصير، وصلا إلى مكان الثور المطبوخ، وبدآ يأكلان وعقب تناول قطعتين صغيرتين من لحم الثور توقف الدرويش عن الأكل، فسأله الدب:

- لماذا توقفت؟

- لم تعد بى حاجة للطعام، بعد كل تلك الخراف التى أكلتها، بينما كنت ذاهبا لحمل الماء (وكان الدرويش أضعف من أن يلمس خروفاً واحداً).

وبعد الطعام، اقترح الدب على الدرويش أن يصحبه إلى منزله، كصديق عزيز. فسارا معا، إلى أن وصلا، حيث طلب الدب من أمه وأخته أن يشحذا له فأساً، لأنه صمم على قتل هذا الصديق الذى بدا أنه أقوى منه.

وما أن سمعت أخت الدب، وكانت دبة طيبة القلب، هذا الكلام حتى أسرعت إلى الدرويش، وقصت عليه ما قاله أخوها.

جاء الليل، وجلس الدب على المائدة، وأكلوا جيداً، ثم تمددوا على الأرض، وناموا .. وبالطبع تظاهر الدرويش بالنوم، فى المكان الذى اختاره له الدب، لكنه عاد فاختبأ خلف بردعة حمار كانت فى ذلك الموضع. وحوالى منتصف الليل، نهض الدب، وأخذ فأسه، وهوى به على جسد الدرويش ثلاث أو أربع مرات، وبعد أن اعتقد أنه قد تمزق تماما، عاد إلى مكانه ونام ..

قبل طلوع الصباح، نهض الدب، وذهب إلى الغابة، وعند عودته ماذا رأى أمامه؟ الدرويش. وبمجرد رؤيته، راح يفرك عينيه غير مصدق ما يراه. ومع ذلك، سأله: كيف أمضى ليلته؟

فأجاب الدرويش:

- حسنا جداً، ماعدا برغوثين أو ثلاثة لسعتنى قرب منتصف الليل. صدم الدب من الدهشة، حيث أن ضربات الفأس لم تبد له إلا لسعات برغوث!

وفى حالة من عدم التماسك، اعترف له الدب بكل شئ، وتوسل إليه أن يخبره كيف يصبح قويا هكذا مثله؟

أجاب الدرويش بهدوء:

- لاشىء أكثر سهولة من ذلك. ما عليك إلا أن تبحث لى عن قربة لبن.

ذهب الدب، وعاد بقربة لبن، فأشعل الدرويش النار تحتها، وعندما بدأت تغلى، قال الدرويش للدب:

- ضع رأسك هنا، حتى تصبح قويا.

وأطاع الدب فوضع رأسه لأول مرة فاحترق، ثم وضعها لثانى مرة متحملاً الألم بشدة، وفى المرة الثالثة، دفع الدرويش رأس الدب فى قدرة اللبن المغلى، وتركه يطبخ على مكمورة القدر.

۞۞۞

فهرس

القسم الأول

القسم الثاني: النماذج

(ب) من النثر